

# الأخلاق

تأليف

أ/ عبد الرحمن زغلول

الناشر

شركة نوابخ الفكر

الطبعة الاولى  
2014 / هـ 1435  
حقوق الطبع محفوظة للناشر  
الناشر  
مكتبة الثقافة الدينية  
526 شارع بورسعيد - القاهرة  
25936277 / فاكس: 25938411-25922620  
E-mail: alsakafa\_aldinay@hotmail.com

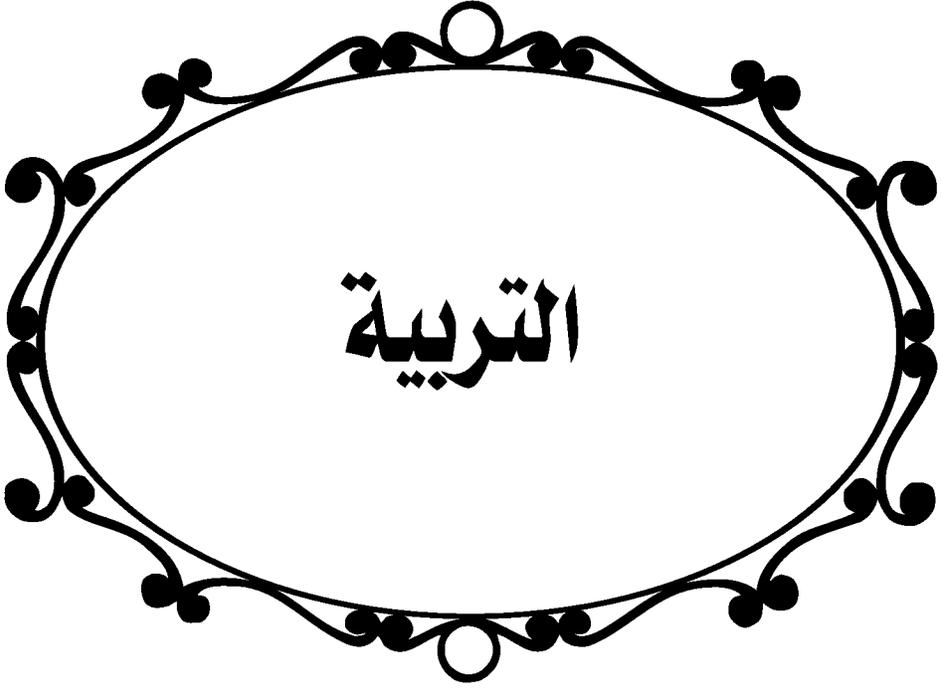
بطاقة المفهرسة  
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية  
إدارة الشئون الفنية

زغول، عبد الرحمن  
الاخلاق / عبد الرحمن زغول  
ط1 القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2013  
160 ص ، 24 سم  
تدمك : 5-594-341-977-978  
1- الاخلاق  
2- التربية  
ا- العنوان

ديوى: 170

رقم الابداع: 2013/11446

بِسْمِ اللَّهِ  
الرَّحْمَنِ  
الرَّحِيمِ



## التربية

التربية، على الإطلاق، توصيل النامى إلى كماله اللائق به، فتصيب النبات، وهى، فيه: تعهده بالسقى والسماد، وتنظيفه من النباتات الغريبة التى تزاخمه فى غذائه ونحو ذلك. وتصيب الحيوان، وهى: إعداده إعداداً تاماً لما يراد منه؛ ففى الفرق مثلاً تكون بجعله سريع العدو سهل القيادة. وتصيب الإنسان، وهى فيه: قول وعمل الغرض منهما توصيله إلى كماله المستعد له.

وهذه الأخيرة على نوعين: تربية النفس، وتكون ببث الفضيلة فيها كالصدق، واجتثاث الرذيلة منها كالكذب؛ وتربية الجسم، وتحصل بنحو الأعمال المساعدة على نموه واستكمال قواه كالحركات الرياضية، فإن الحركات والأعمال الجثمانية المتنوعة سبب فى نمو الأعضاء واستكمال قواها، كما نشاهد نحو هذا فى أقدام السعاة وأيدى كل العمال الذين يكثرون عملهم بأيديهم.

نعم إن التربية النفسية أفضل من التربية الجسمية، لأن الصناعات، كما قالوا، تتفاضل بتفاضل موضوعاتها، إلا أننا مع هذا، ندرك ثمرة كبيرة للتربية الجسمية، ولسنا بمخطئين إذا قلنا بضرورتها. فعليك بحمل الصغار الذين تلى أمرهم على الحركات المتنوعة، خصوصاً المنتظم منها، مع اقتناعك كما يأتى، أن الألعاب الرياضية الحاصلة فى المدارس من قسم الهزل الذى يراد به الجد.

العقل السليم - كما يقال - فى الجسم السليم. وسلامة الجسم لا تتم مع إهماله وعدم تعهده بما يوصله إلى نموه وقوته، وحينئذ فلا بد لنا من التربية الجسمية، بحصول الجسم على قوته يتأتى لنا القيام بالأعمال المتنوعة

التي تكلفنا إياها هذه الحياة كما ينبغي . التاجر والزارع ، والصانع والكاتب ،  
وجميع العمال فى هذه الدار ، إن لم تكن أجسامهم نامي قوية ، لا يقتدرون  
على أداء أعمالهم كاملة ، بل لا بد أن يقع فيها نقص يسقط بقدره من  
الثمرات .

الجسم آلة أولى ، وهبها الله تعالى للنفس لتنفيذ بها إرادتها فى هذه  
المواد ، وتتصرف فيها . فينبغى أن يُعنى الإنسان بتجويد هذه الآلة ، عنايته  
بسائر الآلات ، بل هى أحق . والذي يهمل جسمه يضعف تصرفه فى المواد ،  
وتقل ثمرته ، ويكون مثله كمثل نجار يُباشِر قطع الخشب بمشار كليل . إنك  
تشاهد الناس القليلى الحركة - وكثير ما هم - لا يحصل لأجسامهم نمو نافع  
ولا قوة ، حتى إنهم لا يستطيعون ركوباً ولا سيراً ولا عملاً من الأعمال  
المختلفة التى تستدعيها هذه الحياة ، ويقل الانتفاع بهم ، وأحياناً يحملون  
غيرهم أثقالهم ؛ فهم وإن شاركوك فى الحياة المطلقة أموات من وجه . فعليك  
بتربية جسم من تلى أمره كما تربي نفسه .

\*\*\*



## الخلق

حال للنفس تصدر عنها الأفعال بلا روية ولا تكلف، كالسخاء. فإن كانت تلك الحال بحيث تصدر عنها الخيرات فالخلق فاضل، كالصدق، فإنه ينشأ عنه نظام المعاملات، وإلا فناقص، كالكذب فإنه ينشأ عنه فسادها.

واختلف في قبول الأخلاق للتغيير على قولين: فذهب جماعة إلى أن الأخلاق منها غريزي، وهو ما لا يقبل التغيير، ومنها غير ريزي وهو قابل له. وقال الجمهور أن كل الأخلاق قابلة للتغيير، ولا شيء منها بغريزي، وإن هذا مشاهد، وإن الرأي الأول يؤدي إلى إبطال قوة التمييز والعقل، ورفض السياسات كلها، وترك الصبيان على ما يتفق أن يكونوا عليه. وإنه ليس بغريب أن يتغير خلق الإنسان وهو عاقل، مع مشاهدة أن الفرس بعد كونه جموحاً يصبح ذلولاً سهل القيادة.

هذا وبعض الأخلاق قد يثبت تابِعاً لخلق أو وصف آخر، كالكذب، فإنه يثبت تابِعاً للفخر أو كثرة الكلام مثلاً كما ترى في بابه، والحسد يتبع البغضاء كما ترى في بابه أيضاً؛ فمثل هذه التوابع تزول بزوال متبوعاتها، وذلك أمر مشاهد. وبعضها يثبت ويزول تابِعاً لحالة العصب، صحة ومرضاً، أو قوة وضعفاً. فحيناً نشاهد الشخص شجاعاً مثلاً، وآخر جباناً، كما تقتضيه الأحوال المختلفة لعصبه. ومن هنا حكمنا بأن هناك رابطة قوية بين العصب والأخلاق.

والأخلاق في الجملة منها ما هو راسخ، كالشجاعة والجن، وهذه تعمل فيها المؤثرات ببطء، ومنها ما هو سهل التغيير بالتأديب والعوارض

المتنوعة، كالكذب والنظافة والتبذير. فقد جُرِّبَ أن بعض الناس كان مبدراً،  
ولما أدبهُ الفقر زماناً صار مقتصدًا. وإشراب الدين، وفضائله، وكذلك  
المخالطة الحسنة، أقوى أساس تبنى عليه الأخلاق الفاضلة؛ ولهذا ننصح بهما  
لطلاب الفضيلة.

\*\*\*



# القوى الثلاث

## القوى الثلاث

إذا تعقلنا النفس الإنسانية قبل تعلقا بالجسم، تعقلناها فيما يظهر، خيراً محضاً. أما بعد التعلق فقد عرض لهذا المركب نفوس أو قوى ثلاث، هي مصدر ما يقع منه من الخير والشر، وهى:

### (١) القوة الفكرية:

وبها يكون الفكر والتمييز والنظر فى حقائق الأمور.

### (٢) والقوة الغضبية:

وبها يكون الغضب والإقدام على الأهوال، والشوق إلى التسلط والترفع وضروب الكرامات.

### (٣) والقوة البهيمية:

وبها تكون الشهوة، وطلب الغذاء، والشوق إلى الملاذ التى فى المآكل والمشارب، وضروب اللذة الحسية. وهذه النفوس ضرورية جداً لحراسة الإنسان وسعادته، كما أنها لازمة لتعميره فى الأرض.

أما القوة الفكرية ففضلها لا يخفى، وسيجىء شىء خاص بها. وأما القوتان الأخريان، فلأنه، على فرض عدم وجودهما، كان ينتقى فى الإنسان مثل الشجاعة والصبر، واحتمال الكد والحمية، وطلب المآكل والمشارب، التى هى من ضروريات الجسم. ولو انتفت هذه الأوصاف ونحوها، لما تم للإنسان بقاء ولا للكون نظام. ونحن نسرد لك هذه القوى على الوجه الذى فى كتب الأخلاق:

## أولاً: القوة الفكرية، أو النفس الناطقة:

وهي مختصة بالإنسان، مميزة له عن سائر الحيوان؛ ومتى اعتدلت هذه القوة بأن صارت في الحد الوسط نشأت عنها فضيلة الحكمة؛ وهي هنا - كما نبّه إليه بعضهم - ملكة تصدر عنها أفعال متوسطة بين أفعال الجربذة والغباوة. والحكمة تستتبع أوصافاً محمودة، كالذكاء، والعقل، وأصالة الرأي.

ولهذه القوة طرفان: فالأعلى منهما يسمى جربذة وهو أصل لكثير من الرذائل، كالخبث، والمكر، والدهاء؛ والأدنى يسمى بلكها، وتصدر عنه الرذائل أيضاً، كالحمق والبلادة.

## ثانياً: القوة الغضبية، أو النفس السبعية:

وهي مشتركة بين الإنسان والحيوان. ومتى كانت هذه القوة خاضعة للنفس العاقلة، نشأت عنها فضيلة الحلم، وتتبعها فضيلة الشجاعة، وهي الإقدام على الأمور الكبيرة، إذا كان فعلها جميلاً، ويتبع الشجاعة أوصاف محمودة، كالشهامه والثبات والصبر.

أما طرفاها فهما: الإفراط ويسمى تهوراً، ويصدر عنه مثل العُجب والتكبر؛ والتفريط ويسمى جُبناً، ويصدر عنه الذلة والجزع وحوهما.

## ثالثاً: القوة الشهوانية أو النفس البهيمية:

ومتى كانت هذه القوة معتدلة في حالة التوسط صدرت عنه فضيلة العفة. وظهور هذه الفضيلة في الإنسان يكون بصرف شهواته بحسب الرأي، ويصدر عنها السخاء والصبر والقناعة والأمانة.

أما الطرفان فهما: الإفراط وهو الشره، ويصدر عنه مثل التبذير والوقاحة؛ والتفريط ويسمى خموداً، ويصدر عنه مثل البخل والتقتير والتذلل لذوى الغنى. ويحدث من هاتين القوتين متى اعتدلتا واستسلمتا للحكمة، فضيلة رابعة، اسمها: العدالة، وهي فضيلة يتتصف بها الإنسان من نفسه ومن غيره.

وينشأ عن العدالة فضائل، كالعبادة، وصلة الرحم، وحسن المعاملة. وأكثر علماء الأخلاق على أنه ليس للعدالة إلا مقابل هو الجور. ويفهم مما سبق أن أصول الفضائل أربعة: وهي الحكمة، والشجاعة، والعفة والعدالة.

\*\*\*

الشيء يكمل بمزيتة،  
والإنسان بنفسه الناطقة

## الشيء يكمل بمزيتته، والإنسان بنضسه الناطقة

كل شيء له غرض يُطلب منه، هو الذى نسميه مَزِيْتَه وكمالَه . ونقصه راجع إلى كمال تلك المزية فيه أو نقصها . فمزية السيف مثلا القطع، فإن كان حادا ينصر الفارس عند الحرب فهو كامل، وإن كان كهاما يخذله فهو ناقص . ومزية أفراس الحرب والسبق سرعة العدو . ومزية أفراس النقل القدرة على الحمل وجر الأثقال . فإن كان العدو فى الأولى، والطاقة فى الثانية كما يُطلب، فهى كاملة، وإلا فناقصه . ومزية اللغات دلالتها على المقاصد المختلفة، سواء كانت اللغة ملفوظة أو مكتوبة . وكمال اللغة أمر من حقه أن يرجع إلى وضوح الدلالة، كما أن نقصه يرجع إلى خفائها . وإذن فمن الخطأ الواضح، أن تحكم بأن هذا الكتاب الصعب خير من هذا التاب السهل . فإذا كتبت فلتكن عنايتك موجهة إلى جعل القول سهلا . ومن الخطأ أيضاً ما يصبر إليه بعض الكاتبين من التعقيد فى الإمضاءات، وتذاكر الزيارات «الكرتات»، والأحاديث والحكم والمواعظ، التى يكتبونها فى الألواح . نعم لنا أن نجعل للطلاوة وحسن التركيب موضعاً فى تلك الألواح، ولكن لا إلى حد أن تُضطهد فيها روح اللغة، حتى يبقى الحديث والحكمة صورة فقط، تعلق للزينة . العبارة الصعبة تتعب السامع بلا جدوى، وتضعف روح القول، وتذهب بالزمن من غير فائدة، وربما أفهمت غير المقصود، وأدت إلى غير المراد . المقصد من اللغة الدلالة على الأغراض المختلفة فقط فليس من الصالح تضييع أزمان فيها . ومزية بعض البقر اللحم، ومزية بعض آخِر اللبن والسمن، ومزية قسم منه فلاح الأرض . فإن كان الأول كثير اللحم، والثانى

كثير الدسم طيب اللبن، والثالث مدرّباً على إدارة الآلات المختلفة لزراعة، كالمحراث والنورج، فكمال، وإلا فناقص. ومزية بعض الكلاب الحراسة، ومزية بعض آخر الصيد، فإن كان الأول قليل النوم دائم اليقظة، والثاني سريع العدو بحيث يطارد الحيوانات المختلفة ويدركها، فكمال، وإلا فناقص.

هذا، أما كمال الإنسان فليس بسرعة عدوه لأن الفرس يسبقه، ولا بكثرة لحمه فإن البقر أكثر منه لحمًا، ولا بالمأكل والمشرب مما تقصر عنه همم كثيرين، وإلا كان حقيراً؛ لأن كثيراً من الحيوانات أقدر عليهما منه وأحرص، كالخنزير وسباع الوحوش. بل بنفسه الناطقة، بمعرفته وخلقه الفاضل. بالنفس الناطقة أعد الإنسان للخلافة، عن الله تعالى، على الأرض وما فوق ظهرها، وما أودع فيها؛ فهذه أرض الله، وهذا ملك الله. بالنفس الناطقة تأهل الإنسان لسعادتي الدنيا والآخرة. انظر إلى هذا الهيكل الذى تراه إذا انطفأ سراج عقله وصار مجنوناً، كيف يبطل معناه، ويهون شأنه، ولا يبقى له قيمة، بحيث يكون أى موجود من الأشياء خيراً منه. وقد اقتضت حاجة هذه الدار إلى العمل، بتوزيع الأعمال المختلفة على الأفراد، على كل فرد عمل مخصوص، أعده له استعداده غالباً، وصار هذا العمل منوطاً به، كان مرتبة العمل مقدار ما يحسنه؛ ولهذا لا ترى أهون على الناس من عمل غير صالح. فالحارس مثلاً يكمل بأمانته ويقظته. والطالب بصحة استعداده لإدراك ما يلقي عليه. كذلك فروع الحكومات المختلفة، فالقضاة يكملون بالعدل ومعرفة الحق، وعمال الداخلية بحفظ الأمن.



الدين وتأثيره في الأخلاق

## الدين وتأثيره فى الأخلاق

لا تجد زعيمًا أجدر بالزعامة، ولا إمامًا أخلق بالإمامة، وأولى بأن يبذل له الجماعة كل الطاعة، ولا قاضيًا أقضى بالفصل، وأحكم بالعدل - من دين سماوى؛ كما لا تجد معلمًا أبر فى مآربه، وأخلص فى نواياه، ولا علما أصدق فى تجاربه، وأصح فى قضاياها، ولا قولاً أحكم، ولا حكمة أتم، ولا سببًا إلى السعادة أقوى، وأقرب للتقوى- من دين سماوى، يهبط بصلة بين السماء والأرض، من طيه أن يعيش الناس فىسلام، وتصبح الأرض مخضرة بإذن ربها.

ويغشى الناس ليل دامس مظلم من الغفلة، لا يشرق فيه كوكب، ولا يسفر له فجر، فيقطعون الحق، ويصلون الباطل، ينصرفون عن الله تعالى وهم حسنة من حسناته، ويجحدونه وهم آية من آياته، ويعكفون على أصنام لهم لا تملك لهم من دونه شيئًا. تفتك بهم الرذيلة التى لا تذر من قلب أتت عليه إلا جعلته كالرميم، وتوحى إليهم شياطينهم، فيفسدون فى الأرض، ويسفكون الدماء، ويروحون إلى الحروب وجز الرءوس، كما يروح الزارع المجد إلى الحصاد، لا يعطفون على قريب ولا يرثون لغيره؛ ألم تر كيف كانت العرب تئد بناتها؟!

يجىء الدين وهم هكذا، ويصيح بهم منه صائح، فيتتبهون من غفلتهم، ويهبون من رقدتهم، وينبلج لهم صبح من الرشاد، حتى يروا اعوجاج مذاهبهم، والتواء سبلهم، ويصلوا الحق الذى كانوا قطعوه، ويقطعوا الباطل الذى كانوا وصلوه؛ يؤمنوا بالله تعالى، ويتوبوا إليه، وتطهر نفوسهم

من الرذيلة، ويعصوا شياطينهم، ويصلحوا فى الأرض، ويصبحوا بنعمة الله إخواناً، متواصلين، متحابين، متراحمين، وتنجلي الشقاوة من على سطح الأرض المجلاء، حتى لو توارى شىء منها فى جحر ضب حرب لسلطت عليه عين من لدين فأبصرته، ويد منه فاجتثته .

إننا إذا شققنا الرءوس شقا، ثم صببنا فيها العلم صبا، ولم تكن مع هذا عناية بتقويم النفوس، وإصلاح الأخلاق، لا ندرى أشرف أريد بمن فى الأرض، أم أراد بهم ربهم رشداً؛ لا ندرى أخيراً سلكناه فى تلك الرءوس أم شراً، فكنا فى عملنا كمن يعطى الفقير دراهم فيشتري بها سلاحاً يقتل به الأبرياء . هذا بأن العلم إذا لم تقم عليه كفالة من الأخلاق الفاضلة تضمن للناس الانتفاع به، ذهب فائدته، وأصابته منه الشرور معاول لنقض بناء السعادة، كما يأتى نحو هذا فى نتائج الأخلاق . فلا بد لنا من الأخلاق الفاضلة، والمعين على تحصيلها هو الدين .

إذا كان هناك مؤثر فى الأخلاق يصير الشر منها إلى الخير، كالتربية والمخالطة، فتأثيره بالإضافة إلى تأثير الدين كالملاشى الزائل . ذلك بأن الدين إذا حل بقلب أراك قبل أن تقم من مقامك - من الجبان رجلاً يهون عليه الموت، ومن الكاذب الذى لا يكاد يصدق صادقاً لا يكاد يكذب، ومن الشره الذى يكاد الشره يأتى على نفسه عفيفاً ورعاً، ومن المتكبر الشامخ بأنفه متواضعاً أقرب إلى الضعة، ومن البخيل الذى أضرب به البخل سخياً يؤثر على نفسه . يُحيل لك الدين الرجل الذى أنت أعرف الناس به إلى رجل قد تنكره، ولا تهتدى إليه إلا بدليل . إنه بعد أن كان شيطاناً رجيماً، أضحي ملكاً كريماً .

ما أشبه الدين بالسحر، لولا أن الدين قريب من الخير، بعيد عن الشر،  
والسحر بعيد من الخير، قريب من لشر، وطلب هذا حرام، وطلب ذاك  
واجب.

وكما يؤثر الدين في الشخص، يؤثر في الأمة، ولست تحتاج إلى برهان  
على صحة هذا أكثر من لفظة إلى جزيرة العرب صدر الإسلام، فقد حل  
مكان التفرق الذي كان فيه، والردائل وسوء الحال، أضدادها. وبعد أن كانت  
جزيرة العرب حفرة من النار، تروعها الغارات، ويحلق في جوها البوم،  
أصبحت روضة من رياض الجنة، ترفرف فيها راية السلام. فعل الدين كل  
هذا في زمن قصير، قد التقى طرفاه، واجتمع قطراه، والطبيعة خزياً تنظر.

إن كان الدين إنساناً له عين فالأخلق الفاضلة عينه، أو حيواناً له قلب  
فالأخلق الفاضلة قلبه، أو شجراً له ثمر فالأخلق الفاضلة ثمره، أو ينبوعاً  
فيه ماء فالأخلق الفاضلة ماؤه. وليست الأخلاق الفاضلة أمراً خارجاً عن  
الدين، فإن الخير الذي أتى به الدين راجع في الأكثر إلى تقويم النفس،  
وتخليصها لأن تكون منشأ للخير، وهو مرجع الأخلاق الفاضلة. في صحيح  
البخارى، في أسئلة هرقل لأبي سفيان، أن قال له: ماذا يأمركم (يعنى رسول  
الله)؟ قلت (القائل أبو سفيان): يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به  
شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف،  
والصلة، أى صلة الرحم. هذا هو الدين الإسلامى فى نشأته؛ ألتست تراه أمر  
بخمسة أشياء: التوحيد الذى يقوم عليه كل البناء وثلاثة أخلاق، ثم الصلاة،  
وهى راجعة إلى الشكر، كما كانت آيات الكتاب العزيز فى الإنفاق  
والصدقات راجعة إلى خُلُق السخاء. قال ابن عباس رضى الله عنه: لكل

بنيان أساس وأسا الإسلام الخلق الحسن . يرشد النظر والاختبار، إلى أنه يوم يأخذ الشخص على طريق الدين، تخبوا في قلبه نار الرذيلة، وتنفجر فيه عين من الفضيلة، يصيب الناس منها بسجلين لسانه ويده، ويوم يُولى عنه، تضطرم تلك النار، وتنضب العين، ويغيض الماء .

إنه يوم استتب الدين في قلبه، شاق نفسه، وفرع إلى الله تعالى، وألقى بقلبه في يده، فمسح عنه من الرذائل، وخط فيه من خلال الخير ما شاء أن يخط، فاستقام وكثرت حسناته؛ ويوم تقلقل الدين فيه، شاق الله ورسوله، وصافى نفسه، وصار إليها قلبه، بعد أن رمى به الله تعالى في وجهه، فمسخته ومسحت منه الفضائل، وطبعت عليه الرذائل، فاعوج وكثرت سيئاته . معنى هذا أنه في يوم رجوعه إلى الدين، يطيع الله فيفعل الخير الذي يأمره به، وفي يوم ازوراره؛ يفعل الشر الذي تأمر به النفس .

أما تعليم الدين على الوجه المتبع عندنا فناقص لا خير فيه، لأنه لا يحدث في النفس أثراً، بل مرجعه إلى حشو فم المتكلم بألفاظ تنصب منه كلما فتحه للقول، وإن أثر في فؤاده فكما يؤثر الكاتب على صفحات الماء . ألا وإن كل علم لا يبقى منه للمتعلم أثر نافع بين، يكاد يراه بعينه، ويلمسه بيده - عناء وباطل؛ ألا وإنه لا أثر خليقاً بالذكر لعلم الدين على الوجه المتبع . من ذا الذي، بعد أن يقرأ كتاباً من الكتب التي عليها تعليم الدين اليوم، يجد في نفسه من قراءته أثراً صالحاً؟! - يقع بصرى كثيراً على متعلمين يغدون إلى المدرسة ويروحون، وهم يتبارون أحياناً في سرد كونه قادراً وكونه مريداً إلخ . هذا حظهم من دينهم، وإنى أؤكد للقارئ، قدر ما يستطيع واحد هنا أن يؤكد، أن هذه الأقوال لم تجاوز أدمغتهم، وأفئدتهم هواء .

فإن كنا لا نرى من تعليمنا الدين لأبنائنا صلاحاً في أخلاقهم، فذلك لأن الدين الذى يستتبع الخلق الفاضل، إنما هو شعور خير يقر فى الصدور. أليس تعليمه عندنا يرجع إلى إطلاق الألسنة بالجدل، وسرد براهين لا تزيد المتعلم يقيناً يوم اقتناعه، ولا تدفع عنه ريباً يوم شكه؟! إنما ينبغى أن نريد من تعليق أبنائنا الدين، أن نسقى قلوبهم بالفضيلة والتقوى، وإن لم يحسنوا أن يقولوا، وإلا دفعنا بهم إلى محامين. الفضيلة التى يجب أن نحصر عليها كل الحرص لنا ولأبنائنا، محلها القلب الذى بين الضلوع، لا اللسان الذى بين الفكين.

أرى تعليم الدين على وجه نافع يرجع إلى أمرين: المادة والطريق التى توصل تلك المادة إلى القلب، وأرى أن تكون المادة على نحو ما يأتى:

حفظ شيء من القرآن الكريم والحديث فى: - إصلاح النفس - معرفة العبادات، على وجه مختصر سهل - نعمة الله تعالى على الناس - وجوب شكره تعالى، وأن منه العبادات - كمال الله تعالى - إيراد شيء من صفات الفضل، مثل المغفرة والرحمة - محبة الله تعالى، والاجتهاد التام فى مزجها بالنفس، وملاحظة أنها روح الدين - جزؤه للإنسان بما عمل، وما يرتبط بهذا من السمعيات.

### فى الرسل:

سيرهم، كمالهم البشرى، محبتهم للناس، وحرصهم على سعادتهم، وسعيهم فيها، رغم ما لقوا من الأذى. وجوب محبتهم والافتداء بهم. سيرة النبى ﷺ تفصيلاً.

جملة صالحة من أمهات الأخلاق الفاضلة على أنها من الدين، وإتباعها

بما جاء فيها من الآيات والأحاديث، وجملة كافية من الأخلاق الناقصة،  
وبيان أنها تناقض الدين.

هذا ما أراه إجمالاً في أمر المادة، وهي معان إذا تأثرت بها النفس  
حُملت على الخير. وإن لم أدل في قولي، هذا، المختصر على الطريق التي  
تسلك لتوصيلها إلى القلب، فعسى أن يُوفق امرؤ آخر للدلالة عليها. هذا،  
وإن المعلم الذي يجعل نصب عينيه أن يُعلم من الدين جدلاً، ويبغى من هذا  
إصلاح النفس، يكون كمتطلب في الماء جذوة نار. وأحط منه، معلم يرى أن  
الدين هو ذلك الجدل وتلك الأقوال.

أما الذي يجعل نصب عينيه، مد الشعور وسقيه بالمعاني والشواهد، فإنه  
يكون كالزارع البصير، يسقى الشجرة الطيبة بالماء العذب.

\*\*\*

المخالطة وتأثيرها في الخلق

## المخالطة وتأثيرها فى الخلق

لبعض الموجودات تأثير فى البعض الآخر تحدته المخالطة؛ فالهواء إن جاور الزهر طابت ريحه، وإن جاور الجيف خبثت، والجسم الحار إن جاور جسمًا باردًا أثر فيه الحرارة وتأثر منه بالبرودة؛ والكلب الكسلان إذا قُرُن بآخر يقظ، ينبح الطراق، ويثب على من يتوجس فيه ريبة، سرى فى الأول شىء من النشاط.

وقال بعض العارفين: إن الجمل الصعب قد يصير ذلولًا بمقارنة الذلول، والذلول يصير صعبًا بمقارنة الصعب. والإنسان أكثر الموجودات تأثرًا بالمخالطة، وإنه لمجموع صور مما عليه مخالطوه، جاءت إليه من حيث يريد، ومن حيث لا يريد، من حيث يدرى، ومن حيث لا يدرى. وليس الفرد من كل أمة إلا رسمًا عملته على صورتها.

يقع التأثير بالمخالطة فى كل شىء، كالعادة، والخلق، والدين، والشعور.

ترى المرء فى أول أمره، يقيس أكثر عوائده على عوائد الجمهور الذى يعيش معه، لا يستطيع عدولا عن ذلك، فلا بد أن يأكل كما يأكلون، وينام كما ينامون، وهكذا. ومن أراد أن يخالفهم فى غداء الظهر إلى الغداء ضحى وجد المطاعم مغلقة. ومن أراد أن يعمل بالليل وينام بالنهار، خلافًا لما هم عليه، فإن كان تاجرًا لم يجد من يشتري منه، وإن كان مستخدمًا وجد ديوانه الذى يعمل فيه مغلقًا. وإذا فارق الجمهور الذى يعيش معه إلى جمهور آخر، نبذ عوائده التى تخالف هذا، إما اضطرارًا كما مر، أو اختيارًا متى طال الزمن، حتى علقته بنفسه العوائد الجديدة. ومن الهين تكون العوائد بالمزاولة

واضحلالها. وليست هناك عادة، وإن واطب الشخص عليا حياته، ترسخ حتى يتعذر تركها.

هذا فى العوائد، وكذلك الحال فى الأخلاق؛ فالذى نشأ بين قوم لا يُحلون الصدق من الاعتبار محله، ولا يذوقون للحرية طعمًا، لا بد أن يؤثر فيه منشؤه، ويكون نصيبه من الصدق والحرية تابعًا لما عليه القوم، ومقارِبًا لنصيب واحد منهم. وإذا لحق بقوم آخرين، يُحلون الصدق والحرية محلا رفيعًا، حتى امتلأت عين ذلك الشخص وأذنه شواهد من ذينك الخلقين، لا يلبث كثيرًا حتى يكون له حظ منهما.

ومثل الأخلاق الدين؛ فالذى نشأ فى أسرة مسلمة يصير إلى الإسلام بمقتضى المخالطة، والذى نشأ فى أسرة مسيحية يصير إلى النصرانية بمقتضاها، وهذا أمر بين؛ لأن الطفل، مع كونه قليل النظر، يصير إلى الإسلام أو النصرانية متبعًا ما يرى فيه أبويه. قال الغزالي رحمه الله: فإن الصبى بجوهره خُلِقَ قابلاً للخير والشر جميعًا، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين. قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. ويحدث بعد هذا، أن ابن المسلم الذى يصير فى جو مسيحي يتأثر شعوره الدينى، ومثله ضرورة ابن المسيحي الذى يصير فى جو إسلامى.

وكذلك الشعور يتأثر بالمخالطة؛ فالشئ الذى تشعر بقبحه إذا خالطت جمهوراً يلهج بحسنه، لا تلبث حتى يزول شعورك بقبحه. إن لتوارد الشئ على النفس حتى تألفه تأثيراً غريباً فى شعورها؛ فمن يستقذر شارعاً لسكنائه، فما هو إلا أن يسكن فيه أياماً، حتى ينطفئ فيه ذلك الشعور ويألفه. وإذا رحلت من بلد تقيم فيه إلى آخر أنظف منه، وأقمت فى الثانى زمناً، ثم

عدت إلى الأول، تغير شعورك بحاله، ولم يطب لك المقام فيه كما كان من قبل .

فالتأثر فى جميع ما سبق لا محالة واقع . ادفع بولد صغير، ولو زنجياً، إلى فرنسا، واصطبر عليه حتى يختمر، فإنه يصير فرنسياً، لولا تجعد شعره، وفُطس أنفه، وغلظ شفتيه، وسواد لونه؛ أو ادفع به إلى إنجلترا حتى يتم نضجه، تجده إنجليزياً، لولا ما سبق. قال بعض الناس فى الذين يرسلون إلى أوروبا صغاراً للتعلم، وأصاب: إنك إذ ترسل ابنك إلى فرنسا صغيراً، إنما تقايض على فرنسى، ونفقاتك عليه هناك فرق المفايضة. الطالب الذى يدخل الأزهر، تلقاه، بعد حين من الدهر، مجاوراً طبعته فيه أوصاف المجاورين، كأنما للأزهر قالب أفرغ فيه، وما هو إلا مخالطة المجاورين. من يدخل الجيش من التلاميذ ليصير ضابطاً، تراه، بعد حين، قد صُقل بمصقلة الضباط، وتُدرك له ميزة لا يشاركه فيها إلا ضابط آخر. أما ترى القروى والمدنى وأثر المخالطة فى كليهما؟ أأست ترى فى الأول نوعاً من الخمول والغرارة، بينما ترى الثانى نشيطاً خبيراً بأحوال الناس والأشياء. وكم قروى لما فارق القرية فى إبان نشأته، وقطن بالمدينة، تساقطت من عليه قشرة القرويين وأضحى مدنياً.

ومن يراقب الزوجة أى زوجة كانت، ير أنه إذا طال عليها العهد فى أسرة الزوج أضحى تمثلها فى أخلاقها، وأميالها، وبالجملة فى سائر أحوالها، أكثر مما تمثل أسرة أبيها. إن الجمهور ليس مخطئاً فى تلقيب الكثير من الزوجات بألقاب الأزواج، خصوصاً إذا طال العهد عليهن عندهم. أما تنظر إلى الطلبة الذين يسافرون لإكمال دراستهم فى أوروبا، فإنهم بعد أن يقيموا

هناك أربع سنين أو أقل، فى سن بين العشرين والثلاثين غالباً، يعودون وقد تغير بعض أخلاقهم وعوائدهم؟! أأست تراهم أشد تمسكاً بالصدق والحرية والذمة من غيرهم؟! أحد الطلبة الذين سافروا كباراً، كان خجله شديداً، حتى قبضه حياؤه عن الناس؛ وبعد ثلاث سنين قضاها فى أوروبا، عاد وليس فيه بقية تُحس من هذا الخُلُق، وخالط الناس. وآخرون بعد أن جاوزوا الثلاثين، غير فيهم السفر عوائد وشعوراً، وحل محلها عوائد وشعور كانوا ينفرون منها. ولكن الصغير أتم قابلية للتأثر، والجديد أكثر رسوخاً فى نفسه.

والحق أن الشخص ما دام فى تيار المخالطات المتنوعة، استمر كل عمره كسبورة يتداولها التلاميذ، فإن سطحها يريك كل حين شيئاً جديداً. هذا وإن مقدار التأثر ضعيف فى بعض الناس، إما لانقباضهم عنهم، فلا يطلعون على ما هم عليه اطلاعاً كافياً، أو لأن نفوسهم تتنافر مع الجديد، كما تتنافر الكهربائيتان من نوع. وقد انتُدب، فى بعض الأزمان، أحد إخواننا للسفر إلى أوروبا للاستكمال هناك، فقال بعضنا: من شيع هذا المسافر يوم سافر إلى الأزهر، يستقبله عند عودته من أوروبا، ولم يتغير منه شىء.

فقد بان لنا أن تأثير المخالط شديد، وإن كان بطيئاً، يتمشى فى النفس كما يتمشى البرء فى الجسم، لا كالدين، يغير الشخص فى برهة. فلا بد من اعتبارها فصلاً من فصول التربية، وتخصيصها بنظر دقيق. التربية المنزلية، وتربية المدرسة، لهما حد ينتهيان إليه، أما تأثير المخالطة فإنه لا ينتهى إلا بالموت. كل الوسائل التى تُتخذ فى الأسرة والمدرسة لغرس الخير فى النفس، واستئصال الشر منها، من وعد ووعد، وجزاء بملائم وغير ملائم، ربما لا تنفذ إلى النفس، وقد يقع فيها الخطأ، فتنتج نقيض المطلوب، أما المخالطة

فأثر لا يذهب شيء منها باطلاً، ولا يقع خطأ. الصالح تنفعك مخالطته، والطالح تضرك عشرته. في الذريعة عنه ﷺ: مثل المجلس الصالح، كمثل الدارى إن لم يُجدك من عطره، يعلقك من ريحه، ومثل المجلس السوء كمثل القين، إن لم يحرقك بشرره، يؤذك بدخانها. إذا صعب علينا إيصال الدين إلى نفس التلميذ على الوجه الذى قدمناه، فقد يسهل أن نصله بأسرة طيبة، ورفقاء خيرين. إذا أردت أن ترسل ابنك إلى بلد فيه مدرسة، فلا تظن أن كل ما عليك هو تحصيل نفقاته، بل تذكر أن هذا أهون الأمرين، وأهمهما: أن تلتمس لمعاشرته أسرة سالحة، ترضى له أخلاقها وآدابها، وإلا فلا أقل من أن تلتمس له رقيباً مرشداً، خيراً خبيراً.

وجنب ابنك مخالطة الخدم ونحوهم، لئلا يفسدوا أخلاقه وآدابه وعباراته، ويعلق بدماعه بعض ما هم عليه من الشر، أو ربما كانت النفس فيبعض الأحيان على استعداد تام لأن يعلق بها ما يرد عليها وينمو، فإن ألقى فيها أمثال أولئك شرارة فرما انتهى أمرها بنار عظيمة، ترمى يشرر كالقصر. ورب صالح رأيناه بأعيننا أخرجته عن صلاحه مخالطة شر قصيرة.

لا تُبح لابنك أن يجلس فى محل عام، كقهوة يأوى إليها السفلة؛ وإذا سار إلى محل تمثيل أو نحوه، فليكن مع رفيق خير. وبالجملة، فإن من يقدر الأخلاق الفاضلة حق قدرها، إذا راقب تأثير المخالطة فيها، أعانها نظراً دقيقاً.

وحبذا لو اهتم نفرٌ من المعلمين، الذين يسعون وراء الخير، لا وراء المال، فأكتروا بيوتاً كبيرة، وقبلوا فيها التلاميذ، تلاميذ المدارس، يأكلون وينامون ويسترشدون؛ إذاً لفعلوا خيراً وغنموا أجراً.



السعادة

## السعادة

اختلف في السعادة على أقوال، نسرده لك بعضها، ثم تتبعه بما عن لنا.  
قال أرسططاليس: السعادة لها خمسة أقسام، ولا تحصل سعادة تامة إلا  
باجتماعها؛ أحدها: صحة البدن، والثاني: الثروة والأعوان، والثالث: حسن  
الذكر، والرابع: النجاح في العمل، والخامس: جودة الرأي، وصحة الفكر،  
وسلامة الاعتقاد.

وقال أفلاطون ومعه آخرون: السعادة في كمال النفس وحدها، وصحة  
الجسم من مرض يؤذيها.

وذهب جماعة من الطبيعيين إلى أن السعادة: صحة الجسم والنفس  
معاً، بناء على مذهبهم من أن الإنسان، هو الجسم والنفس، وزادوا حسن  
الحظ.

وذهب فريق من الفلاسفة، إلى أن السعادة في كمال النفس فقط.  
فمنهم من قال: إن الجسم يعوقها عنها فلا تحصل إلا بعد الموت. ومنهم من  
قال: ينبغي حصولها في الحياة، وإن الجسم ليس بعائق، لأنه من القبيح أن  
تكمل نفس الإنسان وتنصرف إلى صنوف الخيرات، ويسمى مع ذلك شقياً.

وقد بنوا تعريفهم على إيراد الملزومات التي تحصل معها السعادة، ولم  
يبينوا ما هي السعادة نفسها. والذي يلوح لنا، أن السعادة نفسها سرور ليس  
منه ألم، وراحة ليس منها تعب؛ أو سرور لا يستلزم ألماً، وراحة لا تستلزم  
تعباً؛ كالسرور الذي يجده الزارع المجتهد عند الحصاد. فإن كان هذا السرور

لا يسلم للشخص، بل من ورائه مشاق، مثل اللذات غير المشروعة، فليس خليقًا باسم السعادة، لأنه قد يذهب بصحته بل بأجله. والسعادة غرض الناس كلهم، الذى يصبون إليه فى هذه الحياة، وإن سعوا إلى رمية من طرق مختلفة. فطلاب الأموال، وطلاب المناصب، لا يطلبون هذه الأشياء لذاتها، إنما يطلبونها ليصيبوا بها السعادة، أعنى للراحة والسرور. فأنا أطلب أن أمضى فى وظيفتى زمنًا حتى يكون لى فى المعاش نحو عشرة جنيهات مثلاً، ثم أبتغى أن أعمل شيئًا أؤجر عليه بلا ألم، مع حرية تامة؛ إنما أطلب ذلك لسرورى وراحتى. وذلك يكد فى جمع الأطيان، حتى يكون له خمسون فدانًا تكفى لعيش يجد معه السرور والراحة، حتى آخر أجله. وذلك يضرب فى الأرض بتجارته، ويشقى فى أسفاره وغربته، يجمع مالاً يكفيه مع اليسر، ويعيش به فى سرور وراحة، وهكذا. وهذه أمثلة للسعادات الجزئية. أما السعادة على الإطلاق، فسرور وراحة على الإطلاق. وهذا غير متأت فى هذه الدار، لأنه ما دامت النفوس مقسمة على الآمال والهموم والأحزان، والأجسام مقسمة على الصحة والمرض، والقوة والضعف، والموت والحياة، ولا سبيل لحي أن يسلم من هذه العوارض، فلا سبيل إلى وصول السعادة المطلقة. وغاية الأمر أنها أقساط جعل القسام بعضها فوق بعض، بما جعل فى الشخص من الاستعداد، وما سلكه هذا من سبل الرشاد، ونحو ذلك. والقسط الخليق منها بالطلب واسم السعادة، هو ما نجده فى الأخلاق الفاضلة، خصوصاً الرضا. وفى الفصل التالى شىء من التوضيح لهذا.



نتائج الأخلاق

## نتائج الأخلاق

أهدى إلينا الله تعالى، تفضلاً منه، قسطاً وافراً من السعادة، فى طى الأخلاق الفاضلة، لا يصل الإنسان إليه بدونها؛ فانحرفنا عنها، إعراض عن تلك المنحة السنية.

عجباً للإنسان يُهدى إليه العَرَض الحَقير فيقبله مسروراً وتُهدى إليه السعادة وهى مطلبه فيلوى عنها!! ليست نتائج الأخلاق الفاضلة التى يسعى فى تحصيلها الإنسان سوى السعادة، ولا نتائج الأخلاق الناقصة سوى الشقاوة، التى يحاول أن يفر منها. الذى يظن أن السعادة أمر خارج عن النفس، ويرحل عن هذا البلد يبغي أن يصيبها فى ذلك، مثله كمثل الذى فى يده شىء غاب عن خاطره أنه فيها، فتحول عن مكانه يتلمسه فى مكان آخر. كذلك شقاوة الإنسان فى نفسه التى بين جنبيه، يعنى فى أخلاقه الناقصة. والذى يفر من بلد يبغي أن يفر بذلك من الشقاء، يحاول فى المعنى أن يفر من نفسه. اللهم، إلا فى بعض أمور عرضية قوية تقتضيها حالة المكان. ويمكننا أن نتعرف هذا بنظرة صادقة فى الخلق الفاضل وأثره، والناقص وأثره. وذلك أنا نجد السخى سائداً قضى الحاجة، شاعراً من هذين الوصفين بسرور؛ على أنه قد يجد سروراً أتم، فى انتشال الفقراء والمعوزين، من وهدة الفقر إلى الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر، والراحة بعد التعب. وكذلك حال من جد فى عمل وثبت فيه حتى أتمه، وفاز بالثمرة التى عمل لها. وهذه الثمرات سعادات جزئية، ولكل خلق فاضل ثمرة، هى سعادة جزئية.

والأخلاق الفاضلة يعسر إحصاؤها، كذلك الحال فى الأخلاق الناقصة.

انظر فى أحوال الحسود، وتأمل فى الآلام التى يكابدها، كلما وصل أحد إخوانه إلى نعمة، ونعم الله لا تحصى! وانظر إلى الحريص، وأكثر الناس حريص، كيف استعبد حرصه، وطوقه بطوق ثقيل من الذل، لا يُفك عنه حتى يموت؛ وفكر فى الآلام التى يكابدها حينما يفوته عَرَضٌ حقير كان يتوقعه، والغضب الذى يستفزه حتى يذهب بسمعه وبصره وفؤاده. ولا نُطيل عليك القول، بل نكلك إلى نفسك، وإلى ما يأتى بعد فى الأبواب المختلفة.

الخلق الفاضل يقرب من الدين، والناقص يُبعد عنه؛ فإن الدين ليس بأجنبى من الخلق الفاضل، بل هو مُقرب له. والشخص الذى يسعى فى تحصيل الكمال الحق، أو الفضيلة، أو الخلق الفاضل، متى عرف الدين لا يجد بدءاً من قبوله، لأن الدين يكون طلبته على الوجه الأكمل، والخلق الناقص مُبعد من قبول الدين؛ فالחסاد والمتكبرون، عاقتهم نقائصهم عن قبول الدين، كما يأتى شىء من ذلك فى الكبر.

ولا ينبغى أن يكون حرصنا على الأخلاق الفاضلة، دون حرصنا على العلوم، فرب خُلُقٍ فاضل يفيدنا أكثر من كتاب مُلئ علمًا وحكمة. وكأين من عالم موسر، يمر بذى الحاجة فيعرض عنه، مع علمه بما قيل فى إغائة الملهوف، وجاهل سليم الفطرة، تحمله سلامة فطرته على قضاء حاجته.

الخلقُ الفاضل لا يصدر عنه إلا خير؛ والعلم، بدونه، كثيرًا ما يكون آلة للشر. فالكاتب إذا لم يكن أمينًا، كانت معرفته الكتابة سببًا فى تزوير العقود والسندات، والمأذون إذا لم يجد من نفسه ذمة، اختار الأقوال الضعيفة، والمذاهب المهجورة، والحيل للعمل وغير شرع الله، وسعى فى جلب الهرج وإفساد النظام. والحداد إذا لم يكن ذا ذمة أيضًا، اشترك مع اللصوص، وصنع لهم المفاتيح، والعُدَد التى تعينهم على باطلهم.

كل القوى الموهوبة من الله تعالى، كالمال، والجاه، والعلم، إذا لم يأخذ بزمامها قائد من الأخلاق الفاضلة، كانت مصائب شديدة.

فالشخص الذى أعطى الجاه، إن كان فى ذاته خيراً، يبذله فى مساعدة الضعفاء مثلاً، والسعى فى قضاء المصالح. أما إذا كانت نفسه خبيثة، وقلبه ممتلىء بالعداوة والحقد على هذا وذاك، فإنه يجعل من جاهه آلات للشرور، ويستعين به على الإيذاء. والذى يُعطى المال، إن كان خيراً محسناً، سعى به فى صنوف الخيرات، وإن كان فى طوع نفسه البهيمية، مثلاً، استعان به على تحصيل اللذات غير المشروعة، واشترى بماله شراً.

ومثل هذين العالم؛ فإن كان شريراً أعانه علمه على الشر. انظر إلى بعض المحامين الذين جلسوا لفعل الشر كيف يصنعون! يقع أن أن العالم إذا سقطت أخلقه استغنى عنه، ولا يُنتفع بعلمه. فبعض الناس قد غلبته القوة البهيمية، فجلس لشرب الخمر، حتى صار لا يصلح لشيء، مع كونه يتقن العلم، أو اللغة النافعة، ويحتاج إلى مثله. وبعضهم زایلوا مراكزهم، وقد كان يمكن أن يُنتفع بهم انتفاعاً تاماً، لولا نقبصة فيهم، وبعضهم باقون فى مراكزهم لسبب ما، وفيهم نقص أبطل منفعتهم.

إن الشخص ليبنى له بيتاً من المجد بخلق واحد يكمل فيه: فهذا السموءل ابن عادياً، ذهب صيته بخلق كمل فيه، وهو الوفاء! وحاتم طيى، لما كملت فيه فضيلة السخاء علا ذكره، حتى إن ابنته لما قدمت على رسول الله ﷺ بسط لها رداءه، وأجلسها عليه! أترى كيف تجل العامة عنترة، وأبا زيد، لشجاعتهم، ويجلسون لاستماع أقاصيصهم كأن على رؤوسهم الطير!! والذين اشتهروا بخلق ناقص ضرب بهم المثل، وأصابهم ازدراء الجمهور بهم.

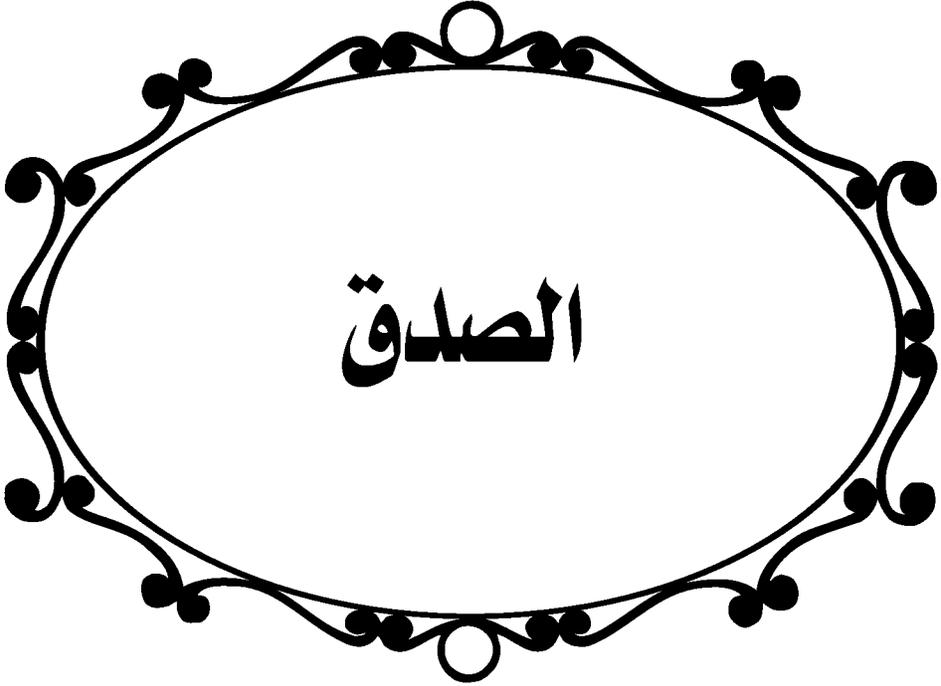
إذا نظرت إلى الأمة العربية، رأيت أنها ما وصلت إلى الملك الكبير، في بدء الإسلام، إلا بشجاعتها، التي جاءت من معيشتها البدوية، وقيام كل في البادية بحراسة نفسه، ومن صفة أخرى جاءهم بها الإسلام، وهي الاتحاد؛ فإنهم صاروا يداً واحدة على عدوهم، وأدركوا في ذلك العهد ما أدركوا، وإن لم يكونوا أمة علم حينئذ. ودولة الرومان الواسعة الأطراف، إنما اختل أمرها، وتفرقت كلمتها، لما أدخلت إلى الراحة، ومالت إلى الترف، وانغمست في الملاذ. وكذلك شأن الأمم في الغالب إذا اقتربت نهاياتها، سلط الله عليها من أنفسها رذيلة أو رذائل، فذهبت بها.

إن خلقاً واحداً في شخص واحد قد تسقط به الأمة سقوطاً.

فالحاكم إذا كان مبذراً، وامتدت يده إلى بيت المال، جر على الأمة ديناً لا تقوى معه على حاجاتها، ولا تمد عينها إلى مصلحة تستدعي النفقة، وتغل يدها عن العمل، وتضرب عليها السيادة لغيرها، والمراقبة، وتقع في الحَجْر كالشخص السفیه، وتخسر من استقلالها قسطاً أي قسط، وتحمل على كاهلها نير الاستعباد.

وكذلك إذا تعاقب على الأمة ملوك جائرون، وحكموا فيها بالاستبداد، أصبحت الأمة وقد فقدت شجاعتها وإبائها، وصارت طعمة لغيرها من الأمم. فقد ذكرنا لك أمثلة شتى تدرك منها فعل الأخلاق بالأشخاص والأمم.

\*\*\*



## الصدق

الصدق يكون فى القول أولاً، وفى جميع الدوال ثانياً، كالإشارات المستعملة بالرأس واليد، للدلالة على معان. كذلك يكون فى الأحوال. فإذا خاض جماعة بالباطل فى حق غائب، فسكت سكوت الموافق، فذلك منك خروج عن الصدق. والحاصل أنك إذا قصدت إفهام غير الواقع، فدلت عليه بأى شىء، فأنت كاذب.

ذهب بعض علماء الأخلاق، إلى أن الصدق حسن لذاته، بقطع النظر عما يرتبط به من الآثار، وقالوا إنه من الفضائل المطلوبة لشخص الإنسان، وإن الكذب لا يليق بمرتبته.

إذا صدقت فقد أعنت غيرك بصدقك على البر، وذلك واجب عليك. الصدق واجب، لأن ضده وهو الكذب مفسد وضار. فمن أراد أن يشتري شيئاً مثلاً، وهو ردىء، واستعان بمعرفتك فسألك عنه، وجب عليك أن تذكره له، وإلا وقع فى ضرر أنت السبب فيه، مع أنه لا يجوز لك أن تضر الناس. ومن سألك عن طريق، وجب عليك أن تصفه كما هو، وإلا ضل ولقى تعباً، ولا يجوز لك أن تُضل الناس. إذا صدق الشخص، كان له من صدقه براءة من الغش والنفاق، والمداهنة، والغدر والخيانة، والرياء، وخلف الوعد، لأن هذه الرذائل مختلطة بالكذب، والصدق حافظ من الوقوع فيها، وكان امرأً إذا ذمة يفى بالوعد، ولا ينقض العهد.

لولا الصدق لانتزعت ثقة الناس بعضهم ببعض، ولما وصل إليهم شىء من الأدين والعلوم والصنائع، وبطلت جامعتهم، وتعطلت لغاتهم، وذهبت

باطلاً، وتقطعت روابطهم، وفسد نظام العالم أجمع، حتى كان كل فرد يقطن وحده فى صحراء بعيداً عن الناس. فليس فى الأخلاق كما ترى، خلق أمس بالإصلاح والنظام من الصدق، ولا أفسد بهما من الكذب. من أجل هذا كان الصدق أول الفضائل، والكذب أول الرذائل.

فلصدق واجب عليك للناس، ولا سيما الذين يتصلون بك منهم، كما هو واجب عليك لذاتك.

إنه لا يمكن أن يصل إلى شرف حقيقى إلا الصادق. أما الكاذب فإنه محتقر ممقوت، خصوصاً عند ذوى الفضيلة، وإن رفعه المقدار فى بعض الأحيان، إلى المناصب الرفيعة، والرتب السامية.

شبه بعض العلماء الكذاب بالمتحر، قال: هذا يقضى على حياة الجسم، ذاك يقضى على حياة الفضيلة، وشتان ما بين الحياتين.

التاجر إذا صدق فى تجارته، اطمأن إليه الناس، وعولوا على الشراء منه، وحفظوا أوقاتهم من الضياع فى شراء عرّض حقير، ومعرفة جيده وثمنه، وأثرى. كذلك الصانع إذا صدق فى صناعته، والزراع إذا صدق فى زراعته، فإن صدقهم يعود عليهم باليسر، وعلى الناس بالراحة.

عليك بالصدق فى موضع ترى أن الكذب ينفعك فيه، لأن الصدق حق الناس عليك، فلا يجوز لك أن تُخل به، رغبة فى الحصول على خير موهوم أو محقق؛ ولأنك مع كل ضرر يأتىك من جهة الصدق، خير منك مع كل فائدة تأتىك من جهة الكذب. على أن الأمر قد يجىء على غير ظنك، وترى من بعد أن الخير فى الصدق.

عليك بالصدق فى موضع ترى فيه أن كذبك مما لا يطلع عليه أحد، لأن الله مطلع عليك، ولأنك تكون قد اضطهدت الفضيلة الواجبة عليك لشخصك، وأنه قد يكون فى الأمر ترتيب لا تقف على سره، ينتهى بظهور كذلك، فتقع فى الفضيحة:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم  
اتق الله فى أسرتك وأبنائك، الذين جعل الله فى عنقك تربيتهم، وتوصيلهم إلى الفضيلة، فلا تكذب أمامهم، وإن كنت هازلاً، فإنهم يقلدونك فى أحوالهم.

ويل للأبناء الناشئين بين أبوين يكذبان فى الجدل والهزل، والسر والعلانية، ويخلطان أكاذيبهما بثلم أعراض الناس، والخط من شأنهم! إنهم ليزرعون شوكة فى قلوب أبنائهم، يجدون متى كبروا لذعه فى أحشائهم، ولا يثمر بين الناس إلا عناءً وهرجاً.

عليك بالصدق، خصوصاً إذا كنت معلماً، لأن صورتك تنتقل فى نفوس كثيرة، وأنت تعمل من غيرك فى مساعدة أمتك على الفضيلة أو الرذيلة.

ويل للأمم من الحكومات الظالمة، لأنها تقتل فيها الفضائل، التى فى مقدمتها الصدق، كما فعلت بنا تلك الحكومات السالفة والقوانين. إن بلادك هذه أصيب جمهورها بالكذب، فيما أصيبوا به من الأخلاق الفاسدة، فليكن حظها منك المعونة على معالجة هذا الداء، لا أن تكون من العاملين على استفحاله. وقد ذيلت باب الكذب بالعلاج الذى ذكره لاستئصاله.

والحاصل، أن اللسان نعمة لله تعالى فيك، وهبها لك لتحصل بها الخير  
لنفسك، ولأبناء جنسك؛ فإذا تصرفت به في المصلحة، كان لك فضيلة  
كبرى، وأمنت مقت الله تعالى؛ وإذا انحرفت به عنها، وسولت لك نفسك  
الكذب، فاستعملته آلة للشرف في هذا العالم، وكنت به معواناً على إفساد  
نظامه، وإبطال حركته، حاق بك سخط من الله وهوان من الناس؛ فاتق الله  
تعالى وراع جانب الفضيلة.

\*\*\*



## الوفاء بالوعد

إذا اتفقت مع آخر، على مقابلته صباح غد في الساعة الثامنة عند محطة الكربائية بالعباسية، أو قرضه عشرة جنيهات، فهذا وعد يجب عليك الوفاء به. دلت عبارتك على قضية خبرية، هي أقابلك غداً، أو أحضر لك عشرة جنيهات، فإذا مضى الغد ولم تسع لمقابلته، أو لم تحضر له عشرة الجنيهات، كان الواقع غير مطابق لقولك، يعنى أنك كاذب، والكذب غير جائز. أوجبت عليك قضيتك التزاماً تتعلق به مصالح لغيرك، فلا بد من الوفاء به. نعم لم يكن سعيك إلى العباسية واجباً عليك من قبل، ولكنه وجب بالتزامك، كالنذر توجهه على نفسك. من أجل هذا قيل: العدة نافلة والإنجاز فريضة. إنك إذا وعدت إنساناً بشيء ما، فقد يترتب على موعدك مصالح جاءت من حيث تدرى ومن حيث لا تدرى، ولهذا ينبغى الوفاء. قد تحدث حاجة لا تعلمها لمن اتفقت معه على المقابلة، ويعلقها على حضورك، فلا يحل لك أن تُخلف الوعد. إذا لم يكن غير أن تذهب الثقة بك حين تعتاد الخلف، وأن تُدعى كذاباً، وتُذيق منتظريك مرارة الانتظار، فهذا كاف لجعل الوفاء محتمماً عليك. إن كنت لا أخالفك في أن الوعود مختلفة، بعضها مهم وبعضها دونه، فأنت لا تخالفنى في أن هذه النتائج مرتبة على أقل الوعود جدوى.

الوفاء، فى الجملة، لازم لسعادة المجتمع البشرى، وثقة الناس بعضهم ببعض، وسير الأعمال فيما بينهم سيراً حثيثاً، وحصول التعاون. هب أن الناس كلهم أخلفوا مواعيدهم: هذا التاجر الكبير، مع صغار التجار الذين

يأخذون منه، وهم معه، وهذه المصانع مع عمالها فى دفع أجورهم، وهؤلاء المدينون مع دائنيهم، وهذه المخابز مع البيوت التى وعدتها بتفريق الخبز عليها يومياً، وهكذا؛ أليس معنى هذا الحيرة، ووقوف الكثير من الأعمال؟! وإذا دام الحال كذلك، أفلا تكون النتيجة عدم ركون الناس بعضهم إلى بعض، وضياع ثقتهم، وبطلان جميع المعاملات المترتبة اليوم على المواعيد؟!

مَنْ مِنَ الناس من لا يشتري وينقد الموعد ثمناً إلى أجل؟ إن النتيجة السيئة، التى تحصل على تقدير عدم الوفاء، تربو على أن يصبح العدد الكثير من العالم وقد تزيفت نقوده، وتولت كفاءته للمعاملات. سل كثيرين من تجار اليوم، ذوى الدوائر الواسعة كيف ابتدءوا فى التجارة، ينبئوك أنهم ابتدءوا فى عروض قليلة، ثم جلبوا إلى محالهم تجارات واسعة لا يملكون من أثمانها غير ما عرفوا به من الوفاء، حتى صاروا إلى هذه الدوائر الواسعة. كان يتردد علينا وأنا شاب، شيخٌ من تجار القطن، وكان يحدث بحكايات أكثرها عن بيعه وشرائه، تتخللها هذه الجملة التى طالما أعجبت بها (سرمية التاجر على قدر صداقته)، وغير خفى أن السرمية هى رأس المال. نعم فإن الثقة بالشخص ثروة ثانية له، فلا ينبغى أن تستهين بالخيرات المقترنة بوفاء الوعد، كما لا ينبغى أن تستصغر الشرور التى يصير إليها الخلف. بجوارنا بمديرية الغربية بلدان، يوجد فى أحدهما بعض الصناع، ويقام فيه سوق، والآخر بجانبه يقضى أشغاله منه. ذهب رجل من أهله إلى البلد الثانى، واستصنع فيه حذاء عند إسكاف، فضرب له هذا أجلاً لإتمام الحذاء، ولم يف بموعده. غضب المستصنع، لأنه رأى أن العيد سيوافيه بحذائه البالى، فمد يده إلى حذاء آخر، وأراد أن يأخذه، فغضب لذلك الإسكاف، وابتدأ الشر بينهما. انتهى هذا،

بعد مناوشات، بتذمر أحد البلدين، وفى القرى شىء من عصبية الجاهلية، وهجوم لى البلد الثانى فى يوم سوقه، وإهانة بعض أهله، وإطلاق البنادق التى أصيب البعض بناها. اقتضى الأمر تدخل الحكومة، طبعاً، وحكم على نحو أربعين من البلد الهاجم بالسجن أزماناً مختلفة، أقلها ستة أشهر. سيق المجرمون إلى السجن، أظلمهم فيه أبان الزراعة، وكلهم زُراع، فساء الحال طبعاً. هذا إلى ما أصابهم وأصاب أسرهم من الكدر، وقد مضى على هذه الحادثة أربع سنين، وصدور البلدين تفيض عداوة وحنقاً.

هذا ما يلوح لنا من ترتب العمران على الوفاء. وقد قال الله تعالى، وهو أصدق القائلين: «يأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون؟ كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون!» قال أبو السعود، فى كلامه على تفسير الآية: معناها: لأى شىء تقولون نفعل ما لا تفعلون، من الخير والمعروف. على أن مدار التعبير والتوبيخ فى الحقيقة، عدم فعلهم، وإنما وجهه إلى قولهم، تنبيهاً على تضاعف معصيتهم، ببيان أن المنكر ليس ترك الخير الموعود فقط، بل الوعد به أيضاً. ولو قيل لم لا فعلون ما تقولون، لفهم منه أن المنكر هو ترك الموعود. وفى الكشف ما يفيد أن لفظ كبر دال على التعجب، ومعنى التعجب تعظيم الأمر فى قلوب السامعين. قال والمقت أشد البغض وأبلغه، وقوله عند الله أبلغ من ذلك، لأنه إذا ثبت مقته عند الله، فقد تم كبره وشدته، وانزاحت عنه الشكوك. وفى الطريقة المحمدية فى الكلام على خلف الوعد، من رواية مسلم، عن أبى هريرة رضى الله عنهما، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: آية المنافق ثلاث، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان. وفى الطريقة أيضاً: من

رواية البخارى ومسلم، عن ابن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خصلة منها، كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر. ونقل أيضاً أن الإمام أحمد ومن تبعه، يرون الوفاء بالوعد واجباً، والخلف حراماً، سواء كان فى أمر الدين أو الدنيا، نوى الخلف أو لم ينو. ثم نقل أن كثيرين يذهبون إلى أن الوعد بنية الخلف كذب حرام، وأما بنية الوفاء فجائز، لكن لا يجب الوفاء، عند الأكثر، بل يستحب، ويكون الخلف مكروهاً تنزيهاً، ودليلهم فى ذلك ما رواه أبو داود والترمذى، من قوله ﷺ: إذا وعد الرجل ونوى أن يفى فلم يف به، فلا جناح عليه. وفى رواية فلا أثم عليه (اهـ. ببعض تصرف).

فقد بان لك، من طريق العقل والشرع، أن الوفاء بالوعد واجب، إلا إذا اضطرت فلم تف، وإلا فيا ليت شعرى: كيف تجب نية الوفاء، وهى وسيلة إليه، حتى إذا جئنا للمقصد، قلنا إنه غير واجب؟ كيف نصنع بالآية والحديثين؟ لم لم يكن معنى لم يف لم يستطع الوفاء.

إذا عنّ لك عدم إنجاز الوعد، فذلك موكول إلى صاحبك، فإن شاء أقالك.

وإذا عرض لك مانع قوى، كمرض شديد يعوقك عن الوفاء، وجب أن تبادل بأخبار صاحبك، فى أى وعد، أيا كان، فإنه ربما يكون قد علق على الوعد أمراً، فإذا علم بمرضك احتاط لنفسه. وإن كنت قد وعدته بموعد مركب من أمرين، وعجزت ع أحدهما، بقى الثانى واجباً. مثلاً، إذا كنت

وعدته بأن تقابله غدًا، ومعك كتاب كذا، فإذا مرضت بقى عليك إرسال الكتاب .

أراك ستصرف الآية الشريفة إلى شيء خاص، أو إلى جماعة كانوا على عهد رسول الله ﷺ، والأحاديث التي جاء فيها ذكر المنافقين، إلى عبد الله بن أبي بن سلول، ومن هم على شاكلته، من رجال زمنه . دعنا من مثل هذا، واعلم بأن الآية مقال الله تعالى، الذي لا تنفع عنده الأسماء ولا الصور، في أى عهد كان، ومن أى صنف كان، إلا من أتى الله بقلب سليم . ويل لهذه الرءوس التي تخيلت، والألسنة التي كذبت من عذاب يوم الدين!! لم يكفنا جهلنا في كل شيء، حتى جعلنا له ناصرًا علينا، من فساد أخلاقنا، وهذياننا في كل شيء . قادتنا الخيالات إلى صرف أخلاق الدين وآدابه وحكمه، إلى من قبلنا، ورضينا من كتاب الله بالعناء . فشا فينا الكذب وخلف الوعد، حتى إن الإنسان ليُعجب ممن يحافظ منا بدقة على مواعده . تواعدت منذ أسبوعين، أنا وصاحب لي فتأخرت لسبب نحو ثلاث دقائق، ولما وصلت إلى المكان ألفيته يلومني على تخلفي ثلاث الدقائق، فأخذني شيء من الدهشة وما أدري أكانت دهشتي من حضوره في الدقيقة أكثر، أم من عتابه ولومه، وأرجو أن يكون عن نفس .

من أخطب الآن، بتعويد أحداثنا هذه الفضيلة من أول أمرهم؟ الأم التي عليها المعول في تربية النابتين، وقد قعد بها العجز، وجنى عليها عدم التربية؟! أم الأب، وأنا أعلم من أكثر الآباء الخلف؟ فيالله من يجيب ندائي؟! أخطب المعلمين، لأهم على كل حال أقرب إلى الخير، واسمع لندائي .

فيأيها المعلمون: هذه أمتكم قد حطها فساد أخلاقها، أكثر من كل

شئء . بيدكم أمة المستقبل ، أخلاق رجالها ، فى الناشئين الذين بيدكم  
زمامهم . عودوهم الفضيلة ما استطعتم ، بثوا فيهم من الأخلاق الكريمة بقدر  
ما تجدون فيهم من الاستعداد ، الذى فروا به من أسرهم . ربوا للبلاد والخير  
والسعادة ، رجالا خيرا منا . وليكم الصدق والوفاء بالوعد أول ما تعنون به .  
إن تفعلوا تنالوا ثواب الله ، والله عنده حسن الثواب .

\*\*\*



## الشجاعة

متى اعتدلت القوة الغضبية نشأت عنها فضيلة الشجاعة، التي هي وسط بين الجبن والتهور. فالجبن: عدم الإقدام على المكاره، ولو مع الحاجة، والتهور: الإقدام عليها، بلا حاجة، والشجاعة: الإقدام عليها عند الحاجة. وهذا الإقدام شجاعة، وإن كان فيه حمل النفس على ما تكره. يقول فارس زبيد عمرو بن معد يكرب:

ولما رأيت الخيل زوراً كأنها جداول زرع أرسلت فاسبطرت  
فجاشت إلى النفس أول مرة فردت على مكروهاها فاستقرت  
وقال قطرى بن الفُجاءة، بطل من الخوارج، سُلّم عليه بالخلافة ثلاث  
عشرة سنة:

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى  
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذي لك لم تطاعى  
فصبراً فى مجال الموت صبراً فمانيل الخلود بمستطاع

ومن البين، أن الشجاعة خلق فطرى، يُفطر عليه الإنسان، ويوجد به من حين نشأته، وإن كان للتربية تأثير فيه. ومن الخطأ أن يظن أن التربية هي السبب وحدها فى الشجاعة والجبن، فإن الشقيقين وإن كانت تربيتهم واحدة، قد ترى بينهما غاية البعد: هذا شجاع باسل، وهذا جبان يراع. فى البادية، حيث يلقي خلق الشجاعة فى كل فرد تمام التعهد، بمقتضى الحالة البدوية، ويجد من كل بقعة منبئاً طيباً، تلقى الشجاع البطل، والجبان الذى قعد به

الضعف. وإذا صرفنا النظر عن الإنسان، ووجهناه تلقاء الحيوان، لقينا هذا الفرق. فالأخوان من القواط الناشئة في بيت واحد، تجرد بينهما تبايناً في إقدامهما؛ هذا يُراعُ لبنأة وينكص على عقبه، وذاك لا ينكف بالزجر، ولا يرعوى بالتهديد. غير أن شجاعة الإنسان إقدام معه روية، أما شجاعة الحيوان فإقدام فقط.

وحاجته إليها شديدة، إذ كيف يتسنى للحيوان الذى يقطن فى القفر، وليس له وزر يلجأ إليه، ولا حصن يؤويه، أن يلى حراسة نفسه وأولاده من اعتداء حيوان آخر، إلا إذا وجد من نفسه إقداماً يدفعه إلى الدفاع. إن الحيوان الضعيف، إذا لم يكن فى حيلة الإنسان تكلؤه رعايته، ويتكفنه سياج من عنايته، صار فريسة لحيوان أقوى منه. ويا ليت شعرى: ما مقدار الهلع الذى يأخذه، والألم الذى يخامرُه، إذا خط المقدار على جبينه كلمة الحياة فطال أجله؟؟

وحاجة الإنسان إليها أشد، خصوصاً إذا كان من أهل البداوة، بعيداً عن المدن والقرى. البدوى فى باديته، قبل احتياجه إلى صارم يهزه فى حراسة مهجته والاحتفاظ بها من عدو هاجم، أو حيوان صائل، يحتاج إلى شجاعة فى قلبه، يتحرك بها هذا السيف. الشجاعة هى مساكن البدو، ومعاقلمهم، وأسوارهم، وخنادقهم، وجندهم، وحراسهم، وكل شىء يفتقرون إليه فى حماية ذمارهم. الشجاعة للبدو، بمنزلة أيديهم التى يبطشون بها، وأرجلهم التى يمشون بها وأذانهم التى يسمعون بها، وأعينهم التى يبصرون بها، وألسنتهم التى يتكلمون بها، وقلوبهم التى يفقهون بها. الشجاعة لازمة للبدوى، لزوم القلم للكاتب، والصحيفة للقارئ، والقَدُوم للنجار، والنار للحداد.

وقد كان للعرب منها فى باديتهم الحظ الأوفر، لما اقتضته معيشتهم فيها. ذلك بأن نابتهم، أول ما يطرق سمعه وهو فى مهده ركض الخيل، وعلك اللجم، وقعقعة السلاح، وصياح الأبطال ووقع السيوف فى الهام. وأول ما يقع عليه بصره فى كل موضع من الخباء سيوف معشره يقطر منها نفوس القتلى، أو صائكة بها أثر غب جلائها (مثل مدب النمل يعلو فى الربا). وآونة يرى معشره قد استأسدوا، ولبسوا الحديد، وخرجوا سرعانا إلى الوغى، فإذا عادوا شم ريح الموت من تلقائهم، ورأى عليهم منه ثياباً حمراً. فإذا ترعرع ذلك النبات، ووعى ما يقال سمع حديث قومه دائراً بين السيوف والرماح، والدروع والجياد، والكر والفر، والغارات والحروب، والظفر والهزيمة، وإطراء البطل، وهجاء الجبان، وعاین مع هذا الطعن والضرب، والجرح والقتل. فإذا طُر شاربه، أخذ يتدرب على الحروب ويُعد نفسه لها، ومشى إليها ولازمها، لا يفتر عنها لحظة، حتى يكاد طعمه يكون من لحوم الفوارس، وشرابه من دماء الأبطال. فإذا أنس من نفسه الاستقلال دل بشجاعته، وجال فى الفيافى، وأوغل فى القفار يلتمس الأوتار القديمة والحديثة ويرتزق من ظل سيفه، لاجئاً إليه فى الملمات، وعند الشدائد. هذا إلى كونه بمعزل عن عصا التأديب، بعيداً عن قهر الملك له، وسلطانه عليه.

لهذا كانت التربية البدوية أساساً متيناً للشجاعة. كان للأبطال ذكر يبطل دونه كل ذكر، وفخر يتضاءل دونه كل فخر. كانت القبيلة، قويتها وضعيفها، تصبح عزيزة الجانب، موقرة مرهوبة، من أجل بطل واحد نبغ فيها. وقد بقيت أسماء أولئك الأبطال خالدة. ألم تر كيف تجل العامة، وفى العامة شىء من التعويل على قوتهم - عترة مثلاً، ويجلسون لاستماع أقاصيصه منصتين؟!!

لم يقف العرب لاستعمال ما وهب لهم من القوة عند الوسط، بل جاوزوه لبعدهم عن الشرائع والقوانين، واعتمادهم على القوة فى كل شىء. قال زهير فى معلقته:

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يُظلم

وفى البيت تحريض على مجاوزة الوسط، باستعمال القوة. ومن هذا القبيل قول سعد بن ناشب يمدح بالاستبداد:

ولم يستشر فى رأيه غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

بقى العرب صدر الإسلام على شجاعتهم، بل تضاعفت. وفد عليهم الإسلام بالحرية، والعدل والمساواة، والجهاد، ولا شىء فيه يخضد شوكتهم، أو يُقلم زطفارهم، مما يصاحب الملك من الغلبة والقهر، ويتبعه من الذلة؛ فأيد الشجاعة على وجه حق بعيد عن التطرف. قال الله تعالى فى تأييد هذه الفضيلة وإنذار الجبان بعقوبة فظيعة على جنبه «ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله، ومأواه جهنم وبئس المصير». اشرب العرب، نساؤهم ورجالهم، شجاعة حقة، بما وقر فى صدورهم من اعتقادهم ودينهم؛ حتى لقد كان نساؤهم يقفن خلف صفوف القتال، لتحريض رجالهن على الحرب، وسوق المنهزمين إلى الموت. بسالة العرب، هى ذلك الخلق، الذى باقترانه مع اتحادهم، توالى فتوحاتهم فى صدر الإسلام. امتلأت صدورهم شجاعة، وفاض منها شىء أفرغوه فى قلوب من الشر والنظم، وأبرزه فى صور رائعة، تفعل بالنفوس فعل سيوفهم بالأجسام. قال أبو بكر رضى الله عنه، لخالد بن الوليد: احرص على الموت، توهب لك الحياة. وخطب عبد الله بن الزبير، لما بلغه قتل مصعب أخيه،

فقال: إن يُقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه. إنا والله لا نموت حتفًا، ولكن قطعًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف، وإن يُقتل المصعب، فإن في آل الزبير خلقًا منه. وقال حصين بن الحمام المرى:

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد      لنفسى حياة مثل أن أتقدم  
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا      ولكن على أقدامنا تقطر الدما  
وقال عنترة:

بكرت تخوفنى الحتوف كأنى      أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل  
فأجبتها: إن المنية منهل      لا بد أن أسقى بكأس المنهل  
فاقتى حياءك، لا أبا لك، واعلمى      إني امرؤ سأموت إن لم أقتل  
وقال الحريش بن هلال القريعي:

نعرض للسيوف إذا التقينا      وجوهًا لا تُعرض للطم  
وإنا لنورد لك شيئًا ما نحن فيه، عن بعض الأمم السالفة: ففي حكومة آتينا، من بلاد اليونان، كان يقضى على الممتنع من قبول عمل لجبته، بملازمة السوق ثلاثة أيام في ثياب امرأة. وفي اسبرته، كان يقضى على الجبان بآلا يتزوج اسبرتية، وكل من لقيه يملك ضربه، ولا يرخص للجبان في دفع ما يصيبه من الأذى، وكان يُحمل مع هذا على لبس ثياب قدرة، أو وضع خرق ملونة في لباسه، تشهيرًا له، ويؤذن له في قص نصف شاربه فقط. وكان الجرمانيون يدفنون الجبان حيًا.

طوى ذلك البساط بما فوقه، من الجياد المدربة، والأبطال والأسلحة والحروب، ونشر بساط آخر، والناس فوقه نيام، في حراسة الشرائع

والقوانين، ورجال الشرطة والجند، وفي قصورهم عصى الذهب والفضة، من تلك الرماح والسيوف، التي كانت حشو فساطيطهم، ودرست آثارها، ولم يبق منها بقية تذكر. في الجند نفسه الذى يلى حراسة البلاد، أوشك السيف أن يتوارى، وخلفه أشياء أخرى، فى مقدمتها العلم والنظام. غير أننا مع هذا، لم نزل بعد فى حاجة إلى الإقدام، ولا نجد بدأً من معونته لنا فى جميع أمورنا.

العالم إذا لم يجد فى نفسه إقداماً، فات الناس فى أكثر المواضع أن ينتفعوا بعلمه، وذو الرأى يفوتهم أن ينتفعوا برأيه؛ وإذا رأيت أمثال هؤلاء، حسبت عالمهم جاهلاً، وبليغهم أعجم، ومعلمهم الماهر فى حاجة إلى الكتاب. إن الذين تعوذهم الشجاعة، أولى الناس بنقص أعمارهم، ولا يمضى عليه وقت بدون أن يذوقوا من جنبهم عذاباً أليماً، لا يُقضى عليهم فيموتوا، ولا يُخفف عنهم من العذاب. كل الحقوق التى لا يفصل فيها القانون - وهى مما لا يتناهى - وبعض التى يفصل فيها، للأقوياء، أما المستضعفون فلا حقوق لهم. العالم مثلاً إذا لم يجد من نفسه إقداماً يدفعه إلى تطلب مرتبته، أحدق بها الجهال، فصارت إلى أجرئهم.

إذا ظفر القوى بضعف منك، فغلبك على حقدك فى المرة الأولى، طالبك به فى المرة الثانية، يقول: حقى! الشجاعة أساس الحرية والاستقلال، وكثير غيرهما من الفضائل. أكثر هذا العالم مغزى بناقص الأقدام، وذنبه عند الناس ضعفه وعجزه عن دفع الشر بالشر.

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتنقى صولة المستأسد الحامى

إن فى الناس كثيرين يعرفون الحق، ولكن الذى يصدع به نفر قليل،

فكن أنت من النفر الذى يصدع بالحق . كن كالإمام، الشيخ محمد عبده، لما نادى جهرة بفساد الكثير مما عليه الأزهر والأزهريون، ووجه قواه نحو إصلاحهم، رغم ما لقي من ضوضائهم، وتألّبهم هم ومن فى طبقتهم . كن كقاسم بك أمين، لما دعا جهرة إلى تربية البنات، فلقى جلبة من الذين يُحكّمون خيالهم فى صغير القضايا وكبيرها، ولا يرثون لما فيه أمتهم، وهم أكثر الناس، فلم يثنه ذلك الصياح عن مثابرتة على الجهر بما يعتقد، بل وقف موقف البطل، وعزز كتابه الأول بثان أيد به حجته، كأنما كان ذلك الصخب إغراء له .

رد الطرف تر لهما أضراباً من الذين يقولون ما يعتقدون، ولا يهابون أحداً فى قول الحق، ومثل هؤلاء للحق نعم النصير .

الأمة فى حاجة شديدة إلى الشجاعة، حتى تبقى مرهوبة عزيزة الجانب، وإلا ضاعت حقوقها، ومُحى اسمها من سجل الأمم . مثل الأمم فى عدم إبقائها على الضعيف منها، واعتداء بعضها على بعض، مثل الأشخاص؛ فإن لم تكن فى منعة بطلت وحدتها ومسخت صورتها، وصارت إلى الذل . إن الأمم التى قعد بها العجز، لقصورها عن الشجاعة والعلم، لا يكون لها حقوق بين الأمم، وتصبح عرضة لمس شئونها وصيرورتها طعمة لها . أما الأمم القوية، فهى التى تحفظ حقوقها، وتنال من غيرها بقدر ما شاءت وشاء لها أعداؤها . هذه أمة اليابان، لما ظهر لها من قوة الشجاعة والعلم بعد حروبها الأخيرة ما ظهر، هبت من رقودها، ونشطت من خمولها، بعد أن كانت أمام الناس كغيرها من الأمم الخاملة، وأخذت الدول

القوية يهيئن لها مقعداً بين مقاعدهم . إن الظفر الذى أصابه اليابانيون سيكون بلا شك سبباً فى بُعد همتهم ، وتطلعهم إلى أرقى مما كانوا يتطلعون إليه .

لا خير فى حياة يخالطها الذل . لا خير فى وجه يقطر منه الرق ، وإن ملئت الكرش مع تلك العبودية لحماً . أجل قصير مع لشرف خير من الذل مع تراخى الأجل . الخلود يستوفيك ، وإنك ميت وإنهم ميتون . سقها إلى الموت إذا دعت الحاجة ، فلا خير لك فيها إذا جنت . ما أعزها وأشرفها إذا عملت بقول ابن هلال :

### نعرض للسيوف إذا التقينا وجوهاً لا تُعرض للطم

أيها المعلمون! إنكم فى تلاميذكم رعاة ، وكل راع مسئول عن رعيته . لا يذهبن بحلمكم أبهة الولاية ، والاستهانة بشأن التلميذ ، إلى أن تحقروه عند كل شىء لا يروقكم منه ، فتأخذوه بالانتهاز والعقوبات الصارمة ؛ لأن هذا يفل من شوكته ويميت من شجاعته ، ويقتل فيه الفضيلة . إن كنتم ملوكاً عليه أو قياصرة ، فاعلموا أن الملوك والقياصرة يغضون عن شىء من سيادتهم فى صالح رعاياهم . إنى لا أعلم أحداً يقتل خُلُقاً فى شخص ، أحق بسخط الله وعذابه ، ممن يعامل نابتاً معاملة يقتل بها إقدامه ؛ لأنه بقتله يلقي بالشخص فى بحبوحة الشقاء ، ويسلبه روحاً ، وإن أبقاه جسماً يتحرك . واستغفر الله! إن القاتل ليقتل الشخص فيذيقه طعم الموت مرة واحدة ، وهذا بسلبه إقدام الشخص ، يذيقه طعم الموت مراراً . ألم تر أنه يجد مرارة الموت كلما أُهين وقعد به الجبن عن دفع تلك الإهانة؟!

حدثوا صبيانكم بسير الشجعان ، وعودوهم الجهر بالحق ، وأقرئوهم

تراجم الرجال الذين يصدعون بالحق، وإن لقوا من الجهر ما لقوا، فإنى أقطع  
بأن السير من أقوى العوامل فى نفوسهم.

إن كنتم مسئولين عما فى برنامج الدروس، فأنتم مسئولون أمام الله  
تعالى عن أولئكم النابتين، وعليكم رقيب من ضمائركم. إن برنامج الدروس  
لا يبنى غير إرشادكم إلى طرق الخير، وحسبكم أن تلتمسوا الخير أولاً من  
بث الفضيلة فى نفوس التلاميذ.

وأنتم أيها الآباء القساء، الذين يحاولون تميل أبنائهم بالسياط والضغط!  
هونوا على أنفسكم، واعلموا أنكم تفسدون فيهم أكثر مما تصلحون!

وأنتم أيها الشيوخ، والكهول، والشبان! عليكم بعلاج أنفسكم، من  
تلکم البقايا التي غادرها ظلم الحكومات السالفة فى صدوركم. عليكم  
بحملها على الأقدام، وتدريبها عليه، بقدر ما تجدون فيكم من العزائم، فكل  
تدريب يبقى فى النفس منه أثر خالد. ليس هذا ببدع مع قول سبنسر، كل  
شئ يحصل فى المادة يترك فيها أثراً لا يزول.

\*\*\*



## الحرية

الحرية لها معنيان: الأول للحرية المتداولة بين الجمهور، والثاني لها عند الباحثين في النفس. فالحرية بالمعنى الأول: كون الشخص مطلق التصرف فيما ينبغي، أو كون الأمة تحت سلطة القانون، لا تحت سلطة شخص. ومن الخطل أن يظن أنها إطلاق إرادة الشخص في كل شيء.

الحرية بهذا المعنى الأول، سبب في حراسة دماء الأمة وأموالها، وكفيل لها بعدم وقوعها تحت تسلط السعاية والطمع، والغاية السافلة، والأغراض الشخصية وأساس تقدمها في كل شيء. أسألك فقل لى، بربك: إذا كان الحاكم شحيحاً حريصاً على جمع المال، لا يرقب في اقتائه إلاً ولا ذمة، فإلى أى حال يكون مصير الأمة؟! إنه لم يبق على وجه الأرض من يرضى بالحكومات الشخصية، إلا الأذلاء، الذين قُتلت فيهم الحمية والإباء، فصاروا إلى الاستسلام في كل شيء. ألا ترى الإنسان في جميع بقاع الأرض مغزى بطلبها، لأنها شيء ثمين لديه تبعاً لما له في ذاته؟ ومن ألقى عن كاهله نير الاستعباد والقهر، فقد حط عن نفسه حملاً ثقيلاً على الحُر! إنك تجد الطوائف كلها يسعون في طلب الحرية، سواء كانوا في مراتب عالية أو مهن حقيرة. الخادم مثلاً يحاول أن يخرج من القيود التي جعله فيها كونه خادماً. لاحظت في القرى أن نهاية أكثر الخدم أن يذروا الخدمة مع ما يكتنفها من خفض العيش، ويصيروا إلى غيرها من الأعمال التي تحفها المتاعب وخشونة العيش. ذلك لأن الحرية شيء نفيس، يضحى في طريقه كل شيء، ويحتمل معه كل شيء.

الحصان الناشط، بل الحمار نفسه، متى توالى عليك سوطك زاد فى العدو وقمص، كأنه يحاول أن يلقيك من فوق ظهره، ويلجأ إلى ساحة الحرية الفسيحة.

الحرية تكون فى الفكر، والقول، والعمل؛ فلك أن تقول وتفعل كل شىء، مع مراعاة الشرع والأدب، ومع المشورة، وإلا طلبت الحرية فوقعت فى الاستبداد. أما حرية الفكر، فيأتيك الكلام عليها فى الكلام على الاستقلال، فإن البابين فى الكثير شىء واحد.

ومما هو جدير بالتبصر، أن يأخذ الناس بالحزم فى أعمالهم التى يرونها لهم بمقتضى حريتهم، وإلا خلطوا، وعاد عليهم عدم التبصر بالضرر.

فالمحامى الذى له حق الدفاع بحرية تامة، إذا هذى فى كلامه، وصار إلى البذاءة والسفاهة، لا يلبث حتى يُسلب حق القول، ويمنع حتى من الدفاع العادل، ويُطرد من الجلسة. والطالب الذى له حق الخروج من صحن المدرسة فى أوقات الرياضة والفراغ من الدرس، إذا ساقه هذا إلى صرف شىء من زمن الدرس خارج المدرسة، لا يلبث حتى يُحظر عليه الخروج من صحنها إلا بإذن، وربما جر هذا إلى حظر الخروج على الطلبة كلهم. فمجاورة الحدود وفض القيود سعى فى التضييق.

مخالفة الآداب ليست من الحرية فى شىء، مخالفة الشرائع ليست من الحرية فى شىء، عدم توقير الكبار ليس من الحرية فى شىء، كل هذا مما لا ينبغى لك أن تحافظ على حقك فى كل شىء، ولكن مع احترام سنة الأدب.

يظهر أنه لا ينبغى رفع القيود، مرة واحدة، عن الأمم التى طال عليها أمد الاستبداد، ولم يكن لها حظ من التربية؛ لأنه ليس لها وازع من أخلاقها

وآدابها وتربيتها، بل من صالحها أن يُفك الحجر، وتوضع القوانين لها بمقدار تدرجها فى التربية، حتى تصير فى حرية كاملة. وإذا رفعت عنها القيود مرة واحدة، عشيت كما يعشى الذى طال مكثه فى الظلمة، ثم دفع به فجأة فى ضوء شديد، ولا تلبث حتى يلحقها منها ضرر؛ كطفل تعطيه سكيناً يلهو به فإنك لا تلبث حتى تسمع عولته، وما هو إلا أن تبصره، حتى ترى السكين أصاب عضواً من أعضائه.

فلنجهد فى إقناع أنفسنا هذه، التى كاد الظلم يقضى عليها، فى أن نكون أحراراً، فى أفكارنا، وأقوالنا، وأفعالنا، ولكن مع الأدب. لنجهد ألا تكون نفوسنا التى بين جنوبنا، وقد أماتها الظلم، أكبر عائق لنا عن الحرية. ما دمنا محافظين على الشرع والأدب، فلا سلطان علينا لأحد، وإن كلله التاج، وإلا فنحن عبيد لكل أحد. لا ينبغى لنا أن نقف بين يدي أحد موقف الخشوع والرهبنة إلا بين يدي الله تعالى.

والحرية بالمعنى الثانى، خلوص النفس فى تصرفاتها، من هواها والانفعالات الوقتية، وخضوعها فى كل فعل للعقل، والغاية الصحيحة. وقد كتب بولزن الألمانى عن هذه الحرية، قولاً نافعاً، فى كتابه نظام الأخلاق، رأيت أن أعرب عنه ما يأتى؛ قال:

من هذا يتضح أن الحرية ليست أمراً غريباً، بل هى شىء كسبى، وصلت إليه الأجيال المتعاقبة تدريجاً، وكذلك يصل إليه الأشخاص. لا يولد الطفل بحرية تامة، بل يولد كالحیوان، خاضعاً للبواعث الحيوانية، والأميال الوقتية، ثم يرتقى بالتدريج، معتمداً فى ارتقائه على التربية، إلى الحرية الكاملة. والناس مختلفون فى الإرادة التى يصلون إليها، فمنهم من يبقى فى

رتبة منحطة قريباً من الحيوان، بحيث يقضى حياته تحت سلطان الشهوة والميل، ومنهم من يصل إلى درجة تشرّب إليها الأعناق، بحيث لا يعمل شيئاً صغيراً كان أو كبيراً ولا يتركه إلا عن ترو وإرادة حقة. كما أن خضوع الشخص لشهواته وأمياله أمر معيب شائن، فتذليله للطبيعة وتسلمه عليها، فيه من المشاق ما فيه. ومن ذا الذى ترضى سجايه كلها؟ إذ من البين أن الإنسان بين الحيوان والعقل الصرف. إذن فهل يمكن الإنسان أن يصوغ أخلاقه كما يشاء، ويصور نفسه كما يهوى؟ نعم لأنه بلا شك معد لأن يربيهها. يمكنه أن يصوغها ظاهراً وباطناً كما يشاء، حتى يؤهلها لإدراك الكمال الذى ينظر إليه. يمكنه أن يُنظم أمياله الطبيعية. يمكنه أن يقهرها ويغلب عليها، حتى يدعها بلا حركة. غير أن هذا مما لا يدرك بالتمنى، بل بالجد المتواصل، والوسائل النافعة، كالوسائل التى تتخذ عند تدريب الجسم على قبول العادة. فإذا اضطجع الإنسان، وطال عليه الوقت وأرق، لا يستطيع أن يجلب النوم بمجرد إرادته، بل إنما يستطيع جلبه فى أوقاته، بواسطة تعديل مأكله ومشربه وعمله. يروى أن يمستين، كانت موهبته من النطق ناقصة، لقصور فيه وخفاء. وقد أراد مع هذا أن يكون خطيباً، فلم يستطع بمجرد هذه الإرادة تقويم مخارج الحروف بالغلبة، بل عمد إلى التمرين من طرق شتى، حتى استخدم الطبيعة فى مطلبه. بمثل هذا يمكنك تذليل الطبيعة، فإذا آنس امرؤ من نفسه حدة شديدة، وقصد علاجها منها، لا يستطيع بمجرد المعرفة والقصد، أن يدفع الغضب عند عروضه عليه بعد ذلك، بل يكونان سبباً فى حصوله على الوسائل الموافقة، التى تزيل تلك الحدة تدريجاً. يبتعد الإنسان عن الأسباب التى تهيج غضبه، فإنه إذا سكت عنه الغضب زمناً، اضمحل تهيوؤه له. يملأ خاطره أمثلة لما ينشأ عن الغضب من الآثار السيئة، ويديم النظر

فى غاية قهر الشخص لنفسه، وغلته عليها، فحسب. قد اعتاد بعض الناس تلاوة حكمة أو شيء من الدين متى ثار غضبه. وإذن فلا نشك أن الشخص يستطيع أن يحدث فى نفسه تغييراً بواسطة إرادته. يستطيع أن يقتل فيها الدواعى القوية بالإباء عن عمل ما تقتضيه، كما يستطيع أن يحيى الدواعى الميتة بروح من العمل، فإن العادة - كما قيل - طبيعة ثانية.

هذا، ومن جهة ثانية، يقال: إن من الواجب أولاً، أن يكون فى الشخص هذا الأساس الذى يبنى عليه تغيير أخلاقه، وليس من الممكن أن يُحصله لنفسه بإرادته، فإنه نفس إرادته. فقط يتأتى له بما عنده من الإرادة، تحصيل الأخلاق الكسبية مع توالى الأيام. وبهذا الاعتبار يكون ما ذهب إليه «شبنهور» من أن الأخلاق لا تتغير، صحيحاً. فالذى لا يشعر بضرر الغضب، ولا بعار الجبن والكذب، وليس لديه الإرادة التى تدفعه إلى عكس ذلك، لا يستطيع بحكم الضرورة، أن يعود نفسه الحلم، والشجاعة، والصدق. أما إذا أراد أن تغيير طبيعة الإنسان وخطته غير ممكن، فهو مخطئ، وليس مذهبه خطأ فقط، بل خطر، لأنه يوقع فى اليأس. وبالجملة ينبغى أن يقال: من أراد أن يصير امرأ آخر أمكنه ذلك، وما عليه إلا أن يعتصم بالأسباب القوية، والوسائى النافعة، لا بالأمال الكاذبة والأمانى.

\*\*\*



## الاستقلال

هو تعويل الشخص على نفسه فيما يمسه بقدر الطاقة . فإذا كنت طالباً، كلما ألقى عليه درس اشتغل بحفظه كما يحفظ تلميذ الكتاب، ولا عمل لك فيه غير أن تحكيه من بعد ذلك، كما يفعل البغاء، فلست بمستقل . وإذا وهب الله تعالى لك ذكاءً نافذاً، تفهم به ما يقال في أصول الدين، ومع هذا تصير إلى الأخذ بكل ما يصل إليك من الآراء فيه والتفسير، فلست بمستقل . كذلك شأنك في المسائل العامة: فإذا خاض الجمهور في موضوع عندك فيه رأى، فوكلت الأمر إليهم، ولم تبد رأيك، فلست بمستقل . إذا كانت أمتك مركبة من أفراد كلهم مثلك متواكلون لم يكن هناك معنى لكونها أمة .

بالاستقلال يرقى الشخص، ويتنفع به في كل عمل يوكل إليه، بقدر ما وُهب له من الاستعداد؛ فإن كان يشتغل في العلم مثلاً فتوقع منه مصلحاً بقدر استعداده . مثل المستقل على ضعف استعداده، كالجواد يملك قليلاً من المال، فيفيد منه ويستفيد . بخلاف الوكيل المقلد، فإنه على تمام استعداده، كالبخيل يملك كنزاً فيرصد عليه الأبواب، ويغلقها دون المعوزين ونفسه، فلا يفيد ولا يستفيد .

فذاك الذي إن عاش لا يُعتنى به وإن مات لم تحزن عليه أقاربه

بالاستقلال ترقى الأمة أيضاً، فإن الأمة متى كثر فيها الأفراد المستقلون حقيقة، فتلكم أمة العلم والعلماء، تلكم أمة الصناعة والصناع، تلكم أمة الحياة؛ كل فرد من أفرادها، تتدفق منه حياة وعناية بجميع شئونها . يريك من نفسه فرداً واحداً، كأنما أفرغت فيه أمة بأسرها . فالأمة المستقلة كأنها مجموع

أمم، وإن قل عددها. كم آلات يديرها ابخار اخترعتها هاته الأمم المستقلة، آلات للطحن وأخرى لرفع المياه، ومثلها للسير فى البر والبحر بما ينفع الناس، وجملة منها للأشغال المختلفة، بل من آلات تديرها الكهرباء! كل هذا وصلت إليه الأمم المستقلة حتى كأنها هى المخاطبة بقوله تعالى: «خلق لكم ما فى الأرض جميعاً». ذُقنا الراحة من تعبها، والنوم من سهرها، فلها منا الشكر.

بالتقليد يذهب استعداد الأشخاص باطلاً، ويُستعملون فى العالم استعمال لات بطيئة ضعيفة، وهم مع هذا يعملون بجميع قواهم لمعارضة كل جديد، وإبطال كل إصلاح، وهم الأعداء الألداء للمصلحين.

إنه ليجدر باشاعر أن يقول: ليست أجسام المتواكلين المقلدين التى نراها، هياكل تشرق بنفوس إنسانية، إنما هى مقابر مظلمة، توارت فيها تلك النفوس بعد أن أماتها التربية. كذلك الأمم المتواكلة لا يرجى لها تقدم فى أمورها، ما دامت متواكلة، ولا فى صنائعها، ولا يكون لها مخترعات، ولا آثار تستقيم بها حياتها، ويطيب بها ذكرها بين الأمم. تعيش بينها فلا تسمع لها ركزاً، مع صيحة الأمم، كأنها جنازة والأمم حولها وقوف للصلاة عليها. لول لم يكن على الأرض إلا أمثال هذه الأمم المتواكلة المقلدة، لاستمر الإنسان فى ضلاله القديم؛ يصيب بعض النباتات، ويسطو على بعض الحيوانات، يطعم منها بلا معالجة ويتخذ له لباساً من جلودها، يتقى به الجر والبرد، ويأوى إلى الكهوف والغابات، ويصنع له سلاحاً من حجر يقاتل به، تائهاً هائماً فى الموامى والقفار؛ ولو نزل عليه مع ذلك دين سماوى لعث به واتخذة للبركة، كما صنع نحن المصريين بديننا.

ويُفطر النبات على التقليد في جميع أموره، ضرورة قصوره وعجزه في كل شيء. فإذا شب ووجد قدرة في نفسه وجسمه، شب حراً خالصاً، أو عبداً قنّاً، تبعاً لما يصادف من التربية والمخالطة. ويظهر أن الاستعداد للاستقلال أرجح، لأنه المناسب للفطرة السليمة والإرادة الحرة. وكثيراً ما شاهدنا رجوع الشخص إلى نوع من الاستقلال، بعد أن صادف تعليم كرع فيه من التقليد، وطبع عليه بطابع من العبودية. اللهم إلا إذا طال العهد على ذلك التقليد، حتى مُسخت في الشخص فطرته السليمة، فإنه قلما يفيد فيه العلاج، ويكون مثله كمثّل المريض بالسل، إذا تمكن منه المرض، فإنه قاتله ولا دواء له.

أمورنا كلها مظاهر لعدم استقلالنا: فتش عن صنائِعنا ومصنوعاتنا، تجدها قد توالّت عليها القرون، ولم يدر في خلدنا التماس أدوات أنفع منها. فهذا محراث الزارع، وساقيته، ونورجه، قد طال عليها العهد، وغيرها من الأدوات كذلك، إلا ما نشتره بالثمن الغالى. ورثنا هذه الصناعات التي بأيدينا، عن قدماء المصريين، كما ورثنا عنهم الوقوف عند حال لا نطلب أرقى منها. يقول فيبر الموائخ الألماني، عند حديثه عما كان للمصريين من العلوم والصناعات: ولكن لعنة الظلم، وتأثير القسيسين، أثقت كواهلهم، واقتضت أن لبث المصريون أحقاباً، لا يجاوزون درجتهم التي رقوا فيها حتى كمل لهم غيرهم من الأمم ما ابتدءوا فيه.

فتش عن مؤلفاتنا وأحوالها، تر أن الذى يقدم لك اليوم مؤلفاً في أى علم، إنما يقدم لك نسخة مما وضع المؤلف الأول. دار الفلك دورات عديدة، وذلك المؤلف بوضعه ومسائله لم يدر مه. نحن إلى روح جديد، وإصلاح من كل مؤلف، أحوج منا إلى إبقاء ما كان على ما كان.

فتش عن أمثلة الكتب نفسها، تر، والعهد طويل، لكتب النحو أمثلة لا تتغير، ولكتب الفقه أمثلة، ولكتب البلاغة أمثلة، وهكذا، وبقيّة هذا الكتاب لا تخالف بقيّة ذلك، إلا بتطويل أو اختصار. هل معنى هذا، إلا أن نفرأ من الأول وضعوا للعلوم مؤلفات بأمثلتها، ثم تركوها فى المهّد، فشابت وهى أطفال؟!!

أخبرنى زميل لى كان يدرس علم البلاغة، أنه اهتم بجمع كتبها، فجمع كل المعروف منها، ثم قرأها فى بعض المواضع، فرآها ترجع إلى كتابين أو ثلاثة، فاستغنى بالنظر فيها عن جميع الكتب.

فتش فى الجمعيات عندنا، تر أن كل جمعية كبيرة لا يزيد عدد العاملين فيها عن نسبة لا تذكر، والباقون عملهم أن يقولوا «نعم، وهكذا كنت أرى، وهذا ختمى». من نحو عشرين سنة، كنت أتردد على المحاكم، وأحضر جلساتها، فكنت أرى بين قضاتها شيخاً أو اثنين، يظهر من حالهما، والنزاع بين الأخصام شديد، أنهما بمعزل عن كل ما يقال. أبصرت أحدهما فى أثناء الدفاع يهوم، منظر لا أنساه من رجل عهد إليه الفصل بين الناس، والقضاء عليهم، بالموت أو الحياة.

بل فتش على رأينا فى أن يفهم الإنسان ما يقال ويعمل به، تر أن الرأى العام لا يبيح هذا. ألم يكن الاجتهاد فى المسائل غير جائز؟! أليس معنى هذا أن كل ما تجود به الأفكار من طرق الإرشاد إلى الصواب والخير لا يُقبل، بل هو مردود على صحبه؟!!

فى سنة ١٨٨٧ قُبلت طالباً فى مدرسة دار العلوم، فوجدت بين معلميها أستاذاً فاضلاً، لا يجهله كثير من الناس، اسمه «الشيخ حسين

المرصفي»، لم أر من قبل هذا الشيخ رجلاً يضاهيه في فضله واستقلاله، إلا واحداً أو اثنين. من كتبه التي ألفها «الوسيلة الأدبية» كتاب أتى فيه على بعض العلوم العربية، في أسلوب لا يألفه عامة العلماء. عدل في تعريف الماهيات كلها أو بعضها، عن المتداولة لأمر عرض له، فكانت هذه التعاريف، وهي مظهر من مظاهر استقلاله، سبباً للسخر منه. لم يقابل عمله بردٌ فُند فيه ما ذهب إليه، كما هو الواجب، بل بالوضوء والتكيت والضحك، كما يفعل عندنا إزاء كل حقيقة لا يألفها الناس.

كنت وأنا شاب مبتدئ في الدرس، أعجب من أن يمتدح طالب بتلقيه من فلان أو فلان. ذلك أنى كنت لا أرى من هذا أو ذاك غير النسخة التي يمسكها بيده؛ حتى حضرت درس الإمام الشيخ محمد عبده، الذي كان يلقيه سنة ٨٨ في التفسير، بجامع عابدين. هنالك أيقنت وفهمت، أن للشيخ وجوداً غير وجود النسخة التي بيده، وأن لنسبة التلميذ إلى شيخ، معنى. نعم فإن العلم يصير إلى الحياة إذا صدر من نفوس حية مستقلة.

المعلم الذي يعود تلاميذه تنزيهه أي شيء كان عن الخطأ، غير القرآن والحديث الثابت، الخاص بالدين، ولا يوجه فكرهم إلى تمييز الحق من الباطل، وأقوال الناس كلهم فيها الحق والباطل، يكون قد ذبحهم بغير سكين، وجنى عليهم وعلى أمهم جناية.

لا ينبغي لكم أيها الطلاب أن يقعد بكم العجز، فترضوا بحفظ عبارات المعلم، التي يلقونها عليكم، ويكون مثلكم كصبيان المكتب، في حفظ ما يكتبون من القرآن في ألواحهم. إذا زعمتم أن هذا ينفعكم في نحو النحو

والصرف. لأنها أمور ترجع إلى اللفظ، فلا شبهة لكم أن تزعموا هذا الزعم في درس الأخلاق، لأنه يرجع إلى نفوسكم.

يهمنى أولاً، أن يصل صوتى إلى أفئدتكم، ويحدث فيها أثراً، حتى تعملوا جهدكم على تجنب الرذيلة، وكسب الفضيلة. فإن هذا كما قلت لكم من قبل مبدأ سعادتكم وسعادة أمتكم. ثم أريد مع هذا حضور المعانى فى أنفسكم، والتعبير عنها بعبارات بينة. على أنى أطلب منكم أن تكون أمثلتكم من ثمرات فهمكم وتأملكم، لا مما أمله أو ألقيه عليكم فى الدرس. ومن أصاب منكم أمثلة أكثر وأصح، كان هذا دليلاً على صدق فهمه، وصحة تأمله.

أيها الطلاب! إن كل من سبقوكم، غير الرسل فى رسالاتهم، فى قولهم الصواب والخطأ. أيها الطلاب! ربما يكون الله تعالى قد وهب لبعضكم تأملاً أصح، وفكراً أنفذ فى الأمور ممن سبقه، فلا يذهبن بكم التقليد إلى تعطيل أفكاركم. إن لم تكونوا خيراً منهم على الإطلاق، فقد يخطئون عند قول المسألة، وتصيبون عند فهمها، وقد يقع الخطأ فى النقل. إن الله تعالى لم يهب لكم هذه القوى الفكرية، إلا لتعملوها جهدكم، حتى تنتفعوا بها وينتفع الناس، فانقدوا كل ما ترونه بقدر ما تصلون إليه؛ وإن لم تفعلوا فقد قصرتم فى التماس الكمال، الذى سهله الله لكم، وهياكم لتحصيله، وظلمتم.

تلقى المسلمون أولاً دينهم بقوة، واتخذوه قانوناً يعملون به، فسعدوا، وجعلناه للبركة وللتمام فشقيناً.

اخلعوا عنكم أيها الشباب هذه الثياب البالية، فإنها لا تصلح لديناكم.

اخلعوا عنكم هذه الصياب البالية، فإنها لا تصلح لآخرتكم.

اخلعوا هذه الثياب البالية، أن تقتلكم بسريان سمومها إلى أجسامكم،  
كما قتلت من قبلكم خلقًا كثيرين .

اخلعوا عنكم ثوب الكذب، وخلف الوعد، والخيانة، والغش،  
والنفاق، والرياء، والتواكل، والكسل، والحسد، والحقد، والظلم.

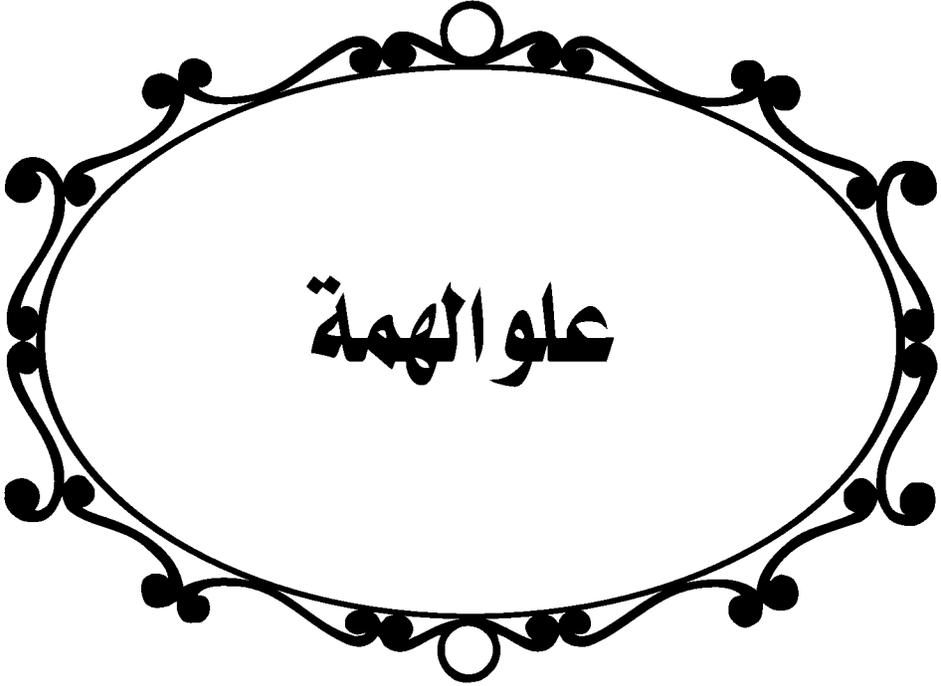
عليكم بالأخلاق التي يدعوكم إليها دينكم، عليكم بالأخلاق التي  
سعدت بها الأمة صدر الإسلام، كما سعدت بها أمم كثيرة .

دونكم ثوب الإسلام، فالبسوه قشيبًا، كما لبسه المسلمون الأول .

عليكم بالصدق، عليكم بالصدق، عليكم بالصدق، والوفاء بالوعد،  
والأمانة، والاستقامة، ومطابقة السر للعانية، والاستقلال، والجد، وتطهير  
القلوب من الحسد والحقد، وعليكم بالعدل والشكر .

وهذه، أيها الطلاب، يدي، أعاهدكم الله على تجنب الرذيلة، والأخذ  
بالفضيلة ما استطعت . فعاهدوا الله ثم عاهدوني، تدرك نحن وهذه الأمة  
خيرًا جزيلاً في الدنيا والآخرة .

\*\*\*



## علو الهمة

فى الجامع الصغىر؁ من رواىة الطبرانى؁ إن الله ىحب معالى الأمور وأشرافها؁ وىكره سفاسفها. وعلو الهمة هو تعلق النفس بالمطالب الرفىعة؁ على وجه التحصىل. وهو؁ كالصبر؁ أساس الأعمال الكبىرة؁ غىر أن علو الهمة بمنزلة السىد الأمر؁ والصبر بمنزلة الخادم المأمور. أو علو الهمة بمثابة الملك؁ والصبر كوزىر له. المرء متى تعلقت نفسه بالمطلب الرفىع تعلقًا صحىحًا؁ اقترن هذا التعلق بالعمل؁ ولىس بعد العمل إلا النجاح. على أنه إذا لم ىنل الكبىر الهمة طلبته فلا أقل من الاقتراب منها؛ كما أن الذى ىجمع قوته لوثب جدول؁ إن لم تتصل به وصبته إلى الشط الآخر؁ وقعت رجليه قربًا منه. فالطالب الذى تتعلق همته تعلقًا حقًا بأن ىصىر فى الاختبار أول الطلبة ىصىر أولهم؁ وإن اعتاقه بعض الأمور؁ كان الثانى أو الثالث.

ولىس علو الهمة مما تعود ثمرته على الشخص فقط؁ بل تعود على الناس أىضًا. فدارس الطىبعة؁ إن رفعت به همة عالية إلى أن ىصبح فى صف المخرعىن؁ اجتنى هو والناس ثمرة اختراعه. والطىىب الذى لا ىرضى من مزاولة الطب بأن ىأكل وىجمع المال؁ بل ىحاول أن ىأتى فى صناعته بعمل كبرى؁ وأثر باق؁ كما ىنال درجة عالية ىنتفع به الناس أىضًا. وهكذا.

وإجمال ما أردت بسطه: مَنْ وصل إلى درجة تطىب بها نفس مثله عادة فلم تطب نفسه بالركون إليها؁ بل دفعت به نفس أبية فجاوزها إلى أرقى منها؁ كان على الهمة؁ وعاد علو همته على وعلى الناس بالخير.

نعم، الذى يجمع نفسه للأمر الكبير يصل إليه أو يكاد. ذلك أن النفس تتهياً للمطلب الذى تحاوله، وتثور فيه عزيمة تحكيه.

كما أن الذى ينوى تشييد دار يستعد لها، فيجمع لها جصاً وأجرأً وخشباً، كما صورها فى نفسه، صغيرة أو كبيرة.

ألم تر أنك إذا نويت السفر يومين، وجدت فيك نشاطاً لا يخمد، وعزيمة لا تفتر، إلا فى اليوم الثانى قبيل أن تُشارف مقصدك؟ أما إذا نويت السفر ساعتين فقط، نفذ نشاطك، وأدركك الملل فى الساعة الثانية. من كان طريقه إلى طنطا، أخذ نشاطه فى النفاذ بعد مجاوزة بنها. أما من عقد النية على الإسكندرية، فإنه يجتاز طنطا وهو ناشط.

إذا هيأت نفسك لمقابلة الوزير، كان من الصعب عليك أن تقابل السلطان. أما إذا أعددتها لمقابلة السلطان، فما أهون الأمر عليك إذ تدعى لمقابلة الوزير.

نفسك معدة للانطباق على مطلب مختلفة، وغايات متباينة تقع على كل منها، كما قد يقع الحافر على الحافر.

النفس الإنسانية «كالأستك» تنقيض وتمدد، فتنتطبق على أشياء كثيرة تختلف مقاديرها.

عليك إذا كنت فى عمل أن تطلب منه الأرقى، ولا تَطْبِ نفساً بما يرضى به الأوساط، فإن الأوساط مقصورون قانعون بما لا تطيب به النفوس الأبية.

الأوساط من بعض الأوجه علة على الأكابر، فارفع نفسك عن

الأوساط . اعمل لأن تكون أسداً يفترس، ثم يدع من فريسته بقية تأكلها الثعالب، ولا تكن ثعلباً، يتلمس ما يُبقى الأسد .

إذا كنت معلماً، فحاول أن تكون معلماً عالي النفس، نابهاً، ولا تكن معلماً خاملاً مقصراً .

عليك، إذا مضت السنون، بجمع ما أثمرت مزاواتك في كتاب، يلجأ إليه الضعفاء القاصرون؛ ولا تكن في جميع أوقاتك عيلاً على غيرك .

إن نفسك هذه التي بين جنبيك مشحونة بالفئاس، تثيرها فيك همة عالية، كما يُستثار التبر بالنبش .

**واعلم بأن التبر في عرق الثرى خاف إلى أن يُستثار بنبشه**

اعتزل الراحة، وانبذ ما يهواه جسمك ظهرياً، إن اعترض لك ما يهوى الجسم، في طريق مطلبك العالى . ومن خطب الحسنة لم يغلبها مهر . بل إذا كنت في طبقة، وأنست من نفسك استعداداً لأن تصير عضواً نافعاً في طبقة أخرى، فلا يقعدن بك العجز عن السعى في تحقيق أمانيك . وعليك، بعد التبصر والحزم، ألا تسمع لقول أكثر الناس، فإنهم يعجزونك، وينصحون لك بألا تفعل .

إن فيك استعداداً، إذا لم تجد فيه عدة لكل عمل يبشره الناس، وجدت فيه عدة لأكثر الأعمال . من كلام ابن الوردي :

**لا تقل قد ذهبت أربابه كل من سار على الدرب وصل**

وقال ريلندز المصور الإنجليزي: يمكن كل امرئ أن يصير مصوراً أو نقاشاً . وقال بكاريا السياسى الطليانى: إن كل الناس يمكنهم أن يكونوا خطباء

أو شعراء . وقال بعض العلماء: إن كل الناس قابلون لأن يسموا بالقرائح سواء؛ وإن ما يفعله البعض بواسطة عقولهم، يقدر أن يفعله غيرهم، إذا استخدموا نفس الوسائط التي استخدمها أولئك .

ما لنا لا نرى منا أشخاصاً كباراً، ما بين مخترعين، ومكتشفين، وأعلام في جميع العلوم؟! هل هذا لأنه ليس فينا صلاح لذلك، والنفوس التي بين جنوبنا ليست خليقة بمحاولة المعالي؟! فما هناك سبب لتسجيل هذا الوصف الذميمة علينا! أما في ماضينا، فقد كنا في سجن من الظلم لا نستطيع أن نخليه . كان الظلم يلحقنا، من فوقنا، ومن تحت أرجلنا، ويأتينا من بين أيدينا، ومن خلفنا، وعن أيمننا، وعن شمائلنا، وأوزاره ملقاة على رؤوسنا وكواهلنا وظهورنا، وأغلاله في أعناقنا وأيدينا وأرجلنا، لا نستطيع أن نفلت منه، ولا نقدر على نهوض، ولا نقوى على حركة . ونحن الآن كالذى أخذ يهب من سبات غب سهر دائم، أو يفيق من بنج ثقيل . فمتى كنا بحيث تدب فينا نفوس عالية، وعلو النفس لا يكون إلا مع الحرية والاستقلال؟! نحن كمتنبئ أتى به إلى بعض الخلفاء، فسأله عن معجزاته، فقال: لو أمهلتُموني أتى بمعجزة، أرسلت بالغداة، وحبستموني بالعشى!

إنه ليهمنا كثيراً - ونحن نرجو سريان الهمة العالية فينا، ونبوغ رجال كبار من بيننا - أن يتنسم إخواننا الأزهريون روح الاستقلال، ويرحبوا للعلوم، بل واللغات، صدرًا، حتى يجدوا منها عضدًا على نشر الدين، وتجذب منهم الأمة أعلامًا مصلحين!

بلاد مصر بلاد دين، والأزهر يكاد يكون مضغة في جسدها، إذا صلحت صلح الجسم كله . ما للأزهريين لا تجاوز أصواتهم جدران الأزهر؟!!

ما لهم لا يحفلون بالأمر العامة، التى فيها صلاح الناس، دينهم ودنياهم؟! ألم يأن للأزهريين أن يجدوا فى إقام الدين والنصح لهذه الأمة؟! أليسوا ورثة الأنبياء؟ هل كان الأنبياء يكلون الوثنيين إلى أنفسهم ويذرونهم فى باطلهم؟! يهمننا أيضاً، لنفس هذا الغرض، أن يكف ذواتنا عن قتل أوقاتهم فى العكوف على ابنة الكروم، والسيارات تغدو بهم وتروح، يحسبون منها شجرة الخلد وملكاً لا يبلى. ماذا عليهم لو تعلقت نفوسهم بالأمر الكبيرة، التى فيها الصلاح لأنفسهم وبلادهم، وصرخوا من أوقاتهم فى الرحل العلمية، وإحياء دارس العلوم، لا فى رحلة الصيف إلى الملاهى. إذا شكنا جماعة منا، قال بعضهم:

أرى نفسى تتوق إلى أمور ويقصر دون مبلغهن مالى

وقال آخرون: ويقصر دون مبلغهن وقتى. فما عذر ذواتنا، على ما هم فيه من سعة المال والوقت، إذا لم يلبوا داعى الهمة؟! كذلك يجب علينا أن نعمل لرقى العلم والتعليم عندنا، فإن العلم كالماء العذب، إذا ارتوت منه النفوس اهتزت وربت، وأبتت، وما نباتها إلا النفوس الكبيرة، والفضائل. قد استهل العلم ونشط فى المهد، بما لقى من عناية الحكومة والأمة. غير أن تعويل الأهالى على أنفسهم لم يبلغ بعد نصابه، وكأنهم لا يزالون يرتقبون أن تعمل لهم الحكومة كل شىء، وإلا فلا أقل من أن تضع لهم أساس العمل، أو تلجئهم إليه.

أين الجامعة وأين مشروعها؟ إنه إذا أنشئت الجامعة فى هذه الديار، هبط عليها روح قوى من السماء، فسرى فى الأمة، وأثمر من الحياة ما شاء الله.

وإنكم، أيها الطلاب، عما قليل تصبحون من رجال الأمة، ويناط بكم بعض شؤونها. فخذوا أعمالكم بقوة، وجدّوا، واطلبوا الغايات البعيدة.

إن كنتم تحسبون أن الواحد منكم إنما يصلح معلماً في مدرسة النحاسين أو المحمدية، فأنتم مخطئون؛ لأنكم تصلحون للتربية في المدارس التحضيرية والعالية أيضاً، متى اجتهدتم. وهؤلاء إخوانكم السابقون يربون فيهما.

أنتم تصلحون، متى عملتم، لأن تكونوا محامين محسنين، وهؤلاء بعض إخوانكم يعملون في المحاماة.

أنتم تصلحون، متى عملتم، لأن تكونوا قضاة ومستشارين في المحاكم، وهؤلاء بعض إخوانكم، منهم رئيس المحكمة، ومنهم المستشار، ومنهم القاضى، وقد كانوا طلاباً في هذه المدرسة، يجلسون لاستماع الدرس كما تجلسون الآن.

بل أنتم أكفاء لأن تتربعوا في دست الوزارة، متى تحركت بين ضلوعكم نفوس عالية أبية، فأملتم، وعملتم، واجتهدتم. وهذا سعادة ناظر المعارف العمومية، نشأ مجاوراً كما نشأتم. فارفعوا أعناقكم، ومدوا أبصاركم، واسعوا إلى المطالب الرفيعة التي تعلق شأناكم، وجدّوا تحمدوا غب السرى.

\*\*\*



## عزة النفس

هى إكرام المرء نفسه، ووضعها فى مرتبتها. رفعة المنزلة من السعادة التى يجدها الشخص فى هذا العالم. على أنها قوة كسائر القوى، تساعد المرء على نيل أمانيه، والتصرف فى أموره، وأن لها فعلاً بالألباب، وسلطاناً على النفوس، لا تضاهيها فيها قوة أخرى، كالمال والجاه. وسبب رفعة المنزلة إنما هى الأعمال المختلفة التى يقوم بها المرء، والصبغ الكثيرة التى يتبدى فيها لأعين الرائيين، تابعاً لما توحىه إليه نفس عزيزة، ترى الموت أن تُلم بالدنايا.

ومن الخطل، أن تحسب العامل فى أقدار الناس إنما هى الأموال التى جمعوها، أو العلوم التى حصلوها، أو المناصب التى نالوها، وإن كانت هذه الأمور من وسائل الاحترام، فى الجملة.

إنك لتجد بين العالمين تبايناً: هذا يجعله القلب، وترمقه العين، ويلقى إليه السمع؛ وذاك لا يؤبه له، ولا يقام له وزن، ولا ينال من الناس إلا الازدراء به، والحط منه. ومثل هذا التباين تلقى بين أولى الثروة والمناصب العالية، بل قد يكون من المال يكسبه الفتى ازدراء به، إذا نكب عن المروءة جانباً، وأجاب داعى البخل. كما قد يكون من العلم موجب لعدم توقير من حصله ولومه، إذا لم يكن نصيبه منه غير قيامه حجة عليه، كالبصير يسير على طريق بغير هدى، حتى يطوح به عدم احتراسه فى بئر، فإنه ملوم. أما الأعمى فإنه إذا تردى فى تلك البئر، كان من الناس فى موضع الشفقة لعجزه. كذلك يكون من المناصب الرفيعة مقت لذويها، إذا كانوا لا يرعونها ق رعايتها. وكثير من ذوى المناصب العالية، الذين قعد بهم أمر عن أداء

حقوقها للناس، لو كانوا فى مناصب دونها، فذلك أذى لتوقيرهم، وأجلب لسعادتهم. إنه لا يولى الفتى تبجيلاً لماله، ولا ذا السلطان إعظاماً لمنصبه، إلا واحد من اثنين: إما رجل خيم الجهل على قلبه، وإما رجل ساقته الحاجة.

من الواجب أن تُعنى بكل صغير تفعله، فأنت مؤاخذ بكل صغير، وله أثر فى قدرك بين الناس، كما كانت الحصاة لها عمل فى قيام القصر المشيد.

الكلمة تقولها نابية عن الأدب، أو مائلة عن الوقار، لها عمل فى قدرك، فلا تتساهل فى كلمة.

المشية تهزول فيها، تزيد عن الحاجة، لها أثر فى قدرك، فاقصد فى مشيك.

الصوت تجهر به، تجاوز ما اعتاد الناس، له أثر فى مكانتك، فاغضض من صوتك.

اللقمة تلوكلها فى فمك على الطريق، بمرأى من السابلة، لها أثر فى مكانتك.

القهوة الحقيمة يأوى إليها السفلة، بجلوسك فيها أثر فى منزلتك. الرجل الساقط المنزلة، بجلوسك إليه وحديثك معه فوق الحاجة، أثر فى منزلتك.

قصدك إلى الدار تجلس فيها للخدم والحاشية، لا مع السيد، مؤثر فى رتبتك.

سعيك إلى الكاتب فى أمر، تقف منه بمزجر الكلب خاسئاً، تكلم، فلا تكاد تسمع صوتك، مؤثر فى رتبتك.

كل هذه أمور لها تأثير فى قدر الشخص بين الناس، وعليها وعلى أشباهها تعتمد رتبته. فانظر فى جميع أقوالك وأفعالك وأحوالك، ولا تول شيئاً منها غضاً، فإن الناس يعدونها عليك حيث لا تحسب.

إذا لم يكن فىك نفس ترفعك عن الأمور القيرة، وتدفع بك إلى طلب منزلتك التى لك، فليست على شىء من عزة النفس، ولا تجد إذن من الناس من يكرمك، بل تكون أهون عليهم، منك على نفسك.

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هواناً بها كانت على اناس أهونا

إن الوضع - أيها الطلاب - الذى وضعكم الله فيه من خير الأوضاع، والطريق التى نتم أخذون عليها من خير الطرق؛ فأنتم طلاب مدرسة تعدكم لأن تكونوا فى الغد معلمين لأمتكم. أنتم الوسيلة الحقة لأن تعلم الأمة، وحية الأمة منوطة بالعلم. أنتم طائفة من طوائف العلم، وأفضل الطوائف هم طوائف العلم؛ نعم يفضل بعضهم بعضاً.

هذا، أما إذا ألقيتم على كواهلكم تربية النابتة تربية صحيحة، وإحياءهم بروح قوى من الدين ينفخونه فى صدورهم، وأخذتم على أنفسكم أن تكونوا لهم قدى صالحة، فقد نهجتم أعدل منهج، وكنتم خير أمة أخرجت للناس. أنتم حينئذ العلماء الذين يخشون الله من عباده، وأنتم حينئذ ورثة الأنبياء؛ فوجهوا منكم همة عالية فى التماس هذه الدرجة الرفيعة، وعسى أن تصيبوها، وأوصوا بها من بعدكم، فرب مبلغ أوعى من سامع.

هذه، أيها الطلاب، هى منازلكم التى هيأكم الله لها، فلا تطعموا أنفسكم الهوان، وتجرعوها الذل، ولا يزحزحكنم عن أقداركم ما تحسبوننا فيه من الفقر المزرى، إلى ما ترون فيه الملاء من قصورهم المشيدة، وخيلهم

المطهمة، وأموالهم الوافرة؛ فإن لنا فى القناعة مجدًا بناؤه أطول مما يجده أولئك فى بنائهم، وعزاً أقوى مما يجدونه فى ظهور خيلهم، وغنى فوق ما يجدونه فى أموالهم. وهيهات أن يصاب فى من مال!

وكما أن وضع المرء لنفسه دون رتبته حط من قدره، كذلك وضعه لها فوق رتبته يثير عليه أحقادًا، تغلى فى الصدور على الماء فى المراحل، ويجلب له المقت، ويجعله عرضة للرد إلى مرتبته الحققة؛ كالذى اكرى مقعدًا فى ملهى، ليس له أن يجلس فى مقعد خير منه، وإلا استهدف شخصه للهوان، والسوق طوعاً أو كرها إلى موضعه. والذى اكرى محلاً للسفر فى عربات الدرجة الثانية، ليس له أن يتكى على أرائك لدرجة الأولى، وإلا عرض نفسه للخسارة أو الطرد. كذلك نحن فى هذا العالم، ليس لنا أن نقر إلا حيث تنصب لنا أقدارنا مقاعد.

ومن أسباب عزة النفس، شعور الإنسان من نفسه بالفضيلة، وإقدامه؛ فإنه كلما شعر الشخص من نفسه بالفضائل، ولم يخذله إقدامه، عزت عليه نفسه، وأقام لها شعائر الاحترام. وإن النفوس البشرية لتهون على ناقصى الإقدام، والذين يطوحون فى النقائص. تهون على المرء نفسه متى استولى عليه الشعور بالنقيصة، حتى إنه ليحسب راحته فى الهرب منها. ألم تر كيف ينتحر بعض الناس إثر اقتراف النقيصة؟ فلا شىء أذهب براحة النفس وأحط لها، وأعمل فى صغارها من النقائص! أف من النقائص! ما أشقى الأحرار بها، والجواد قد يكبو - وما أقدرها على التطويح بهم فى نار حامية!

إن بعض الناس، لسقوطهم فى نقيصة، تغيرت عوائدهم، وآدابهم، وأخلاقهم، حتى صاروا خلقاً جديداً، لو مثل لهم من قبل لرأوه غير خليف

بنظرة منهم. اعوج طريقهم، وقد كان من قبل سويًا! ودنت غاياتهم، وقد كانت من قبل بعيدة! ماتت آمالهم، وكانت من قبل حية! وسفلت أخلاقهم، وقد كانت عالية! وانحطت آدابهم، وقد كانت راقية! ورضوا بأن يساموا الخسف من جميع الناس، بعد أن كانوا من أباة الضيم! وبدا للناظرين خطلهم فى كل شىء، بعد أن كانوا متسمين بالكياسة، وأصالة الرأى؛ كأنهم إلى هذا اسودت وجوههم، وتغيرت خلقهم الظاهرة؛ فلو رأيتهم، على خلة كانت لك بهم، لأنكرتهم، ولو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارًا ولملئت منهم رعبًا! هذا، أيها الطلاب، لأنهم سقطوا فى النقيصة على مشهد من الناس، فهانت عليهم أنفسهم، ونا بهم انكسا أشعف إقدامهم، الذى كان يأخذ بأيديهم ويتقدم بهم، حيث مستقر النفوس العزيزة!

تقطعت صلاتهم بخلق، واتضعوا عند خلق آخر! وأقفرت منهم تلك الغرف التى كانوا يشرفون منها على العامة، حتى كأنما كانت تلك الفضيلة التى خدشوا وجهها، حجرًا خرَّ من بناء فتداعى من أجله ذلك البناء!

ماذا تتوقع فى غالب الأحيان من مدير عزل من منصبه لرشوة أساءت سمعته، غير تنكبه عن بعض الطبقات التى كان يغشاها، خصوصًا أصدقاء الفضيلة منهم، وصيرورته إلى مخالطة آخرين، لا يقطبون للنقائص وجوهًا، وتبذله فى أموره، ووقوفه عند حال، دون الذى كان فيه من القول والفعل وعزة النفس؟!

فلتحذر الرذائل، لأنها تذهب بعزة أنفسنا، وتبيد سعادتنا، وتحرفنا عن الطريق السوى، طريق الدين والحكمة.

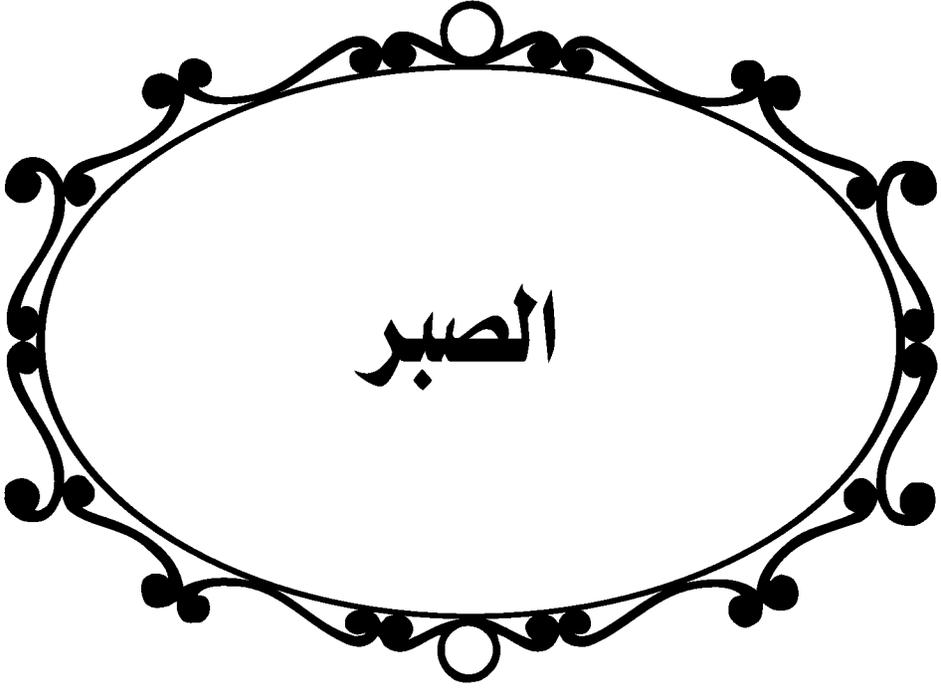
علينا بتجنب الكذب، والخيانة، والبخل، والرياء، والغش، والطمع،

والميل مع الهوى، فإنها تنتهك عزة أنفسنا، وتجهد سعادتنا، وتجلب علينا الشقاء من كل ماكن.

ولنحرص على الأخلاق الفاضلة، فإنها الأساس المتين لسعادتنا، وعزة أنفسنا.

لنحرص على الإقدام، قدر ما تحتمل أنفسنا، والعفة والقناعة، والأمانة، والصبر، والصدق، والحرية، فإن فيها مدداً لعزة أنفسنا، وقسطاً من السعادة أيما قسط.

\*\*\*



## الصبر

الصبر من أَلزم الأخلاق للمرء، حتى يدرك أربه في الدنيا والآخرة.  
من أجل هذا ذكر في التنزيل العزيز، في نيف وسبعين موضعاً، كما  
في الأحياء.

قال الله تعالى:

﴿وَالْعَصْرُ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [سورة العصر].  
وهو أنواع:

الأول: الاستسلام عند المصائب، فإن الجزع لا يهون أمر المصيبة، بل  
يعظم شأنها. ومن الحكم: المصيبة للصابر واحدة، وللجازع اثنان. إن كان  
التصبر لا يذهب بالنكبات، فإن فيه تقليماً لأظفارها.

ومن قول أکثم بن صيفى: حيلة من لا حيلة له الصبر.

ما أشقى المرء الذى يسلم نفسه للجزع، خصوصاً إذا كان التخيل يجسم  
الدقائق، لأنه يصلى فى كل كريمة بنارين، نار من جزعه، وأخرى من  
تخيله، ولا يكاد يفكر إلا فى نازلة.

إن الاستسلام عند الشدائد، والإنابة إلى الله، من الإذعان بالعجز،  
والشكر له، من آيات الفوز.

قال الله تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [سورة البقرة].

لا تذهبن نفسك على فائت حسرات، واذكر أن كل شيء إلى فوات، وإن تراخى الأجل، وأن موقف الجزع، ينقص الوقار، ويذهب الحشمة. الزم الصبر، فعمّا قليل يصير الرزء الذى ينوء بك إلى سيرة، كالشهاب، يحور رماداً بعد إذ هو ساطع.

تذهب الشدائد وتنقضى الأحزان، ولا يبقى من الجزع إلا سخط الله وازدراء الناس، ولا من الصبر إلا رضوانه وثناؤهم.

ومن خير ما جاء فى الباب قول إبراهيم بن كنيف.

تعز فإن الصبر بالحر أجمل      وليس على ريب الزمان معول  
فلو كان يُغنى أن يرى المرء جازعاً      لحادثه أو كان يُغنى التذلل  
لكان التعزى عند كل مصيبة      ونائبة بالحر أولى وأجمل  
فكيف وكل ليس يعدو حمامه      وما لامرئٍ عما قضى الله مزحل!

ويغلب الصبر فى الشيوخ الذين طالما امتحنهم الدهر، لأنهم يكونون بحيث قد عُدوه فى جميع أحواله، واطمأنوا إلى أن من غالب الدهر غلب، ومن صارع الأيام صرعته، ووطنوا نفوسهم على قول ابن دريد:

فالدهر يكبو بالفتى، وتارة      ينهضه من عشرة إذا كبا  
لا تعجبين من هالك كيف هوى      بل فاعجبين من سالم كيف نجا!

أما الشبان فأولئك هم الأغرار، لم يسمعهم الدهر بعد عشاته، ولا أخلصهم بنوائبه؛ جهلوا، وإن حفظوا علومًا شتى! بعيدون عن التعلم، وإن طال اختلافهم إلى المعلم، فإن المعلم الحق هو الدهر!

يريد الشباب أحيانًا أن يفلت من يد الدهر، وآونة يبغى أن يصرعه، وهو في الحالتين تائه عن الحق. إذا أقبل الدهر على الشباب عابسًا تتهلل نواجذه، حاول أن يتخلص منه، فأوقع نفسه في شدة، وابتلاها بمحنة شر من محنة الدهر. وإذا علم أن لا مفر من الدهر، انتحر بعض التلاميذ عند خيبتهم في الامتحان.

يبتلى الله الإنسان ليربيه ويصلح من شأنه. رب مريض مسجى، وأهله وأصحابه مطيفون به ليكون، والله تعالى فيه منة، ما يرضى المريض منها بحمر النعم. إن المصائب إيقاظ الله للعبد من غفلته؛ فمن ألقى السمع، وتسمت الصوت، نجا من المفاوز التي يتيه فيها.

إن في كل نكبة شمسًا تضيء النهج، ولكن الأجهر يتأذى لضوء الشمس. لا يأخذنك عجب، فأنت نفسك، إذا مرض ابنك، أذقته صنوفًا شتى من الألم تبغى شفاءه من مرضه، بل تحاول أن تشقى نفسه من الرذائل بإذاقته ألوانًا من الألم.

إن كنا لا نفهم أحيانًا وجه ارتباط المصلحة بالمصيبة، فلعجزنا وقصورنا، كما أن ابنك في بعض الأحيان، ترتب الفائدة على ما يناله منك من المكاره. سل عن كثيرين من المرضى، تعلم أن المرض كان لنفوسهم علاجًا شافيًا. تعالى الله علوًا كبيرًا، أن يكون كالطفل، يربط العصفور من رجله لا تأخذه به رافة! احمد الله تعالى على الشدة قبل الرخاء، والضراء قبل السراء.

قال يواقيم هنرى، فى مكاتبة روبنسون، التى وضعها باللغة الألمانية، وجعلها كتاباً لمطالعة النابتة، ما تعريبه:

«قال الأب: إن القدر يجرى بنا كما كان منى اليوم مع حشرة.

فقلت الأم: وكيف كان ذلك؟

قال الأب: اليوم كنت أكسر خشباً، وبينما أنا أريد ضربه بالقدم، أبصرت حشرة فى مسكنها سيصيبها القدم. فقلت فى نفسى: ما جناية هذا الحيوان فأقتله؟ ثم نفخت الحشرة نفخة أطارتها من سكنها، وألقتها على بعد ثاى خطوات منه، كأن عاصفة شديدة احتملتها. ثم قلت: ترى ماذا فكرت هذه الحشرة الحمقاء فى نازلتها - إن كانت الحشرات مما يفكر؟ - إنها تكون قد قالت: ما أقسى هذا الظالم الذى يمشى على رجلين؟ ما أقساه إذ أثار عاصفة استأصلتنى من مسكنى مرغمة، وطارت بى فى الجو حتى سقطت هنا غريبة، نازحة الدار والوطن؟ ويا ترى ماذا يجد له فيما صنع؟ إنه فعل بى ما فعل، إلا ليرانى اسبحة فى الجو أقلب فيه! ومن البعيد أن تكون رأى، ولو فى منامها، إنى إنما فعلت بها ما فعلت، عطفاً عليها، وإبقاءً على حياتها. فإذا نزلت بنا نازلة، فعلينا ذكر هذه الحشرة، ولا علينا حكماً مؤسساً على الكفران بالنعم. ولئن فاتنا إدراك سر القدر، لقد فات تلك الحشرة إدراك مقاصدنا».

الثانى: توطىن النفس على احتمال المكاره، التى فى الأفعال المحمودة.

قال الله تعالى: «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب».

وفى الإحياء، قال ﷺ: «فى الصبر على ما تكره خير كثير».

وقال ﷺ: «إنكم لا تدركون ما تحبون، إلا بصبركم على ما تكرهون».

من البهي أن المرء إنما ينتفع به ويقدر بأعماله، والأعمال، خصوصاً ما كان منها جليلاً شاقاً، لا تتم إلا بالصبر. إن الذين لا يعتصمون بالصبر والثبات، ينفقون كثيراً من أوقاتهم وقواتهم هدرًا، ولا يتأهلون لمباشرة الأعمال الكبيرة.

عمل الأذكياء ليس بشيء في غالب الأحيان، جانب عمل المتوسطين الذين يعتصمون بالصبر. لا يقعدن لك احتقارك لمهبتك من الذكاء عن طلب الغايات البعيدة، إذا كنت امرأ مغرى بهمة عالية؛ فإن لك في الصبر ما يساعذك على بلوغ أمانيك، أكثر مما يساعد الذكاء المخلوط بالضجر ذويه. انظر إلى إخوانك الذين يجمعهم بك فصل واحد، تر فيهم من قسطه من الذكاء واف، ومن حظه دون ذلك! وقد يعطيكم مدرس الحساب مثلاً مسألة يطلب منكم حلها، فيتفق أن الذكي ينظر فيها برهة، ثم يدركه الضجر فيدعها، وأن الذي دونه يجد لها بعد زمن حلاً؛ ذلك بما صبر. كذلك شأنكم بعد تمام الدراسة، خارج المدرسة؛ الفوز للصابرين، والله معهم. سلوا عن من هو أكثر تأليفاً، من إخوانكم الذين سبقوكم، ينبؤكم بأنهم أصبرهم لا أذكاهم. نعم إن الغلبة في المدرسة غالباً للأذكياء، ولكن خارجها بالعكس، الغلبة غالباً للصابرين. ذلك بأن أمور المدرسة مركبة من دقائق تنقضى الواحدة منها في لحظة، أما هذا الجو الذي سبقناكم إليه بالأمس، وستلحقونا به، ففيه آمال كبيرة وشاقة، لكنها جليلة، لا يستطيع الضجر مباشرتها، ولا يذوق ثمرتها، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم. فليطب نفساً من يشعر من نفسه

بقصور فى الذكاء، فإنه يستطيع أن يتبدل به الصبر. ألم تر أن الله تعالى قرن قوة الصابر بعشر قوى؟! قال تعالى:

«إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين».

ليس معنى هذا أن الصبر بمنزلة التميمة، متى علقها الشخص ظفّره الله تعالى، بل معناه أن فى الصبر مضاعفة للقوة، فإنه يحمل على الإلحاح والمداوة، ومن كان مستمراً ملحاً، فجدير بالفوز والغلبة.

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبوابا أن يلجا

إن الهمة العالية لا يحصل عليها إلا الصابرون. أما الضجر فإنه لا يحصل منها غير الأمانى، فإن الهمة العالية تحت الجلد فى طلب الغايات البعيدة، وذلك يقتضى النصب والتصبر.

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

إن الهمة العالية، أينما سارت، سار فى ركابها ثلاثة خدام، من الإرادة والصبر والثبات؛ والصبر والثبات متلازمان فى الجملة. وفى كتاب سر النجاح لسموئيل الإنجليزى كثيرون من الذين ثبتوا وصبروا. كتاب طيب إلى الغاية عربّه أصحاب المقتطف. كتاب يحرك من القارئ نفساً خامدة، ويحيى أملاً ميتاً، ما قرأت فيه إلا لقيت منه فى نفسى أثراً حمدته، فعليك بطلبه حيث تجده، وقراءته مرة، لا بل مرات.

أرسل الله تعالى الرسل بالهدى ودين الحق، ليُطهروا الناس مما هم فيه، من سفك الدماء، وإثارة الشر، والعادات السيئة، فجاءوا أقوامهم بالهدى، فلقوا منهم الاستهزاء والتكذيب والضرب، فصبروا على ما كُذّبوا وأوذوا،

حتى جاء نصر الله . ومنهم سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، جاء بالحق من ربه ، فأصابته إهانات شتى ، ومع هذا أمر بالصبر إذ يقول الله تعالى : «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل» وكان من نتيجة دعوته وصبره ، أن غمر الناس بخير جزيل ، وهداهم للإيمان ، وفي الإيمان الحق كل خير وسعادة .

اقتضى إحسان الله أيضاً أن يوجد في الناس أصنافاً من العلماء المصلحين ، والمخترعين الماهرين ، والمكتشفين الذين ضربوا في الأرض ، والصناع الحاذقين ، وكل هؤلاء لم ينجحوا في أعمالهم ضرورة ، ويصلوا إلى ما وصلوا إليه ، إلا بالصبر ؛ ففي الصبر إحسان من الله إلى الناس ، ومن الناس إلى الناس .

ولقد رأيت من تمام الفائدة . أن أعرب لك ما كتبه بوزن الألمانى فى الصبر ، قال : الصبر هو الاستعداد لاحتمال الآلام ، بدون أن نذهب بنفس الشخص . ويمكننا أن نلاحظ منه نوعين : نوعاً يرجع إلى الاحتمال ، والثانى إلى الفاعلية . الأول : احتمال الآلام من غير بدمر ولا معارضة ، والثانى : قوة فى الخاطر ، بحيث يجد الشخص من نفسه قدرة على النهوض ، والإقدام على العمل ثانياً ، غب انكسار أو خسارة أو نحوهما . الصبر شجاعة المرأة ، وه بنوعيه ، خصوصاً الأول ، أكثر فى النساء منه فى الرجال ، وإنك لترى أن قوة الاحتمال للأوجاع تكمل فيهن ، كما لا يقضى منه العجب . وهذا الفرق منشؤه الاختلاف بين الطبيعتين ، طبيعة المرأة ، وطبيعة الرجل ؟ فالمرأة بطبيعتها أمهر من الرجل فى احتمال الآلام ، أما طبيعة الرجل ، فمبناها على الهجوم والدفاع ، ويصعب عليه الوجود فى ألم لا يستطيع فيه دفاعاً ، ولا يمكنه أن يفلت منه . وكذلك النوع الثانى يكثُر فى النساء أيضاً ؛ فإن المرونة فى قوة

المعارضة عند المرأة، من أنفس أوصافها وأجملها. الرجال متى كبروا ينهضون من عثراتهم بصعوبة، أما المرأة فإنها في الجملة تهتدي ثانياً بسرعة إلى طريق المعيشة والواجب، فإنها لا تلبث بعد كبوتها حتى يدركها الخوف والرجاء، فتهم وتعمل؛ ذلك بأن طبيعتها مرنة، بخلاف الرجل، فإن طبيعته أجف، وأقرب من الكسر، والمرأة تتقبل باحتمال عظيم ما يثقلها من الأتعاب والمكاره. إن الرجل ضجر، وهي مستريحة هادئة البال، ولهذا طبعت على كونها حافظة للأطفال، متعهدة للمرضى، مسلية للشيوخ.

دل الإحصاء على أن قوة احتمال الآلام والأقذار، أتم في المرأة منها في الرجل، بواسطة حوادث الانتحار. يقابل انتحار كل امرأة بأربعة من الرجال. فإذا دل الانتحار على أنه لم يبق في الإنسان قوة يطبق بها الحياة، صح بمقتضى هذا أن يقال: إن قوة الاحتمال في المرأة، تساوى قوة الاحتمال في الرجل أربع مرات.

إن الصبر على الآلام يدل دائماً على خلق شريف. أما الشجاعة والثبات فقد يأتیان بالتبعية لنية سيئة، أو محبة الشخص لنفسه، بخلاف الاستسلام للشدائد، فإنه علامة على أن قوة المزاحمة الشديدة الطبيعية في الحياة، التي بواسطتها يحصل طلب الإفلات من الشدائد، هدأت وتلاشى عملها، بواسطة إرادة عالية في الشخص. من ثم لم يكن هناك تنافر شديد، بين النفس والنازلة.

**الثالث:** احتمال المكاره، التي في صرف النفس عن هواها، وهو أيضاً عفة، قال الله تعالى: «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى». النابت تحت ولاية أبيه أو جده مثلاً، لئلا يتصرف ضد

مصالحته، ومتى كبر خرج من هذه الولاية، ولكن يجب عليه أن يضع فسه تحت ولاية الشريعة، وإلا كان أقدر على إيذائها منه في صغره.

ومن الخطأ الذى لا يغتفر، أن يجعل زمامه بيد نفسه وهوها؛ فكم أَلقت بالمرء تلبية الهوى فى الهوان:

إذا أنت لم تعص الهوى قالك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقال

من الحكمة ألا ينال المرء إلا من لذة مباحة، فإن إباحتها علامة على خلوصها من الأذى. أما النفس فتتهافت على اللذة المهلكة، تهافت الفراش على النار.

إن أنصح صديق لك الشرائع السماوية، وأغش عدو لك نفسك التى بين جنبيك، فاحذرها. إنك تسمع من الشريعة صوت الحكمة، وتسمع من نفسك ضوضاء من البهائم، وجلبة من الشياطين.

إن القوة البهيمية استولت علينا، فأفسدت فينا أكثر مما أفسدته القوة الغضبية، وأكثر نقائصنا من جهة الشره فى الانهماك فى الملاذ.

فى ظنى أن معظم الجنايات التى تقع فى بلادنا، من نحو القتل، ترجع إلى إفراط القوة البهيمية، لا إلى إفراط القوة الغضبية. لتزاحم على لذة حيوانية، يقتل الرجل أخاه، أو يقتله ودونه حجاب مستور، حريصاً على عرض يصيبه.

إن أشقياءنا مسوقون إلى الشقاوة بالشره، أكثر مما هم مسوقون إليها بشيء آخر.

حالة أكثر الطبقات عندنا تستدعى الأسف؛ فالطبقة العالية، وهم أبناء

ذواتنا السابقين، وذواتنا اليوم، دفعها التبذير إلى طاعة الشهوة البهيمية على أقبح وجه. قلدوا الأوروبيين أسوأ تقليد. قلدوهم فى الصورة الظاهرة، من اللغة والملابس وشرب الخمر، وأعرضوا عن الفضائل. الأمير أو المعتدل من الأوروبيين، يشرب قليلاً من الخمر فى الغالب، من عادة أو توهم جلب منفعة، وأمرأنا يشربونها ليسكروا. ذاك يفعل الشئ طلباً لما يوافقه، وهذا يفعله تكلفاً وتقليداً. فسد أمرأنا داخل بيوتهم وخارجها. أفسدتهم الخمر فأفسدوا حاشيتهم، وسرت عدواهم إلى بعض المستقيمين. أصبح ذلك الطزبوش الأحمر الطويل، حشوه رأس امتلاً سرفاً وتبذيراً. ليس هذا واجب أمة على أمرائها، إن واجبنا على أمرائنا أن يتمسكوا بالفضيلة، ويتجنبوا الرذيلة، حتى يكونوا فينا قدى صالحه. واجبنا عليهم أن يعينونا على إغاثة فقرائنا وتربيتهم، وأن يتعرفوا إلينا فى شدائدنا، وأن يكون كل قصر من قصوره مشرقاً لشمس الفضيلة والعرفان، بحيث تصبح فى عداد مدارس الأمة، ومن خيرها. ولهم بذلك منا ارتباط قلوبنا بهم، وإخلاصنا لهم فى السر والعلانية، واحترام السوقه للأمرء.

أما الطبقة الدنيا من العمال والصناع، فقد غلبهم الحشيش والخمر على عقولهم حتى أصبح ورم العينين، وهو فى الغالب علامة عدم الاستقامة، سمة لأكثرهم.

سألنى قريب لى عند عودتى من أوروبا، عن شئ أكون قد استغربته عند وصولى إلى مصر، فلم أذكر له ما يصلح. فقال: ولكنى أول ما عدت، أخذنى العجب من مرأى العيون، فإننى رأيت أغلب الأجفان وارماً. ألم تفكر مرة فى هؤلاء العملة الفقراء، الذين يترددون على الحانات، وفى

أسرهم؟! يمضى الواحد منهم يومه فى أى محل إقامته فيه الحاجة، يتربح الليل، وخياله يبحث عما يضحك السُّمار، حتى إذا شاب النهار خرج إلى الحانة، وله زوجة مسكينة، وذرية ضعفاء، لا يمر بهم. وإن ألم بهم، ترك لهم قليلاً من النقود لا تكفى لحاجتهم من الخبز وحده، واشترى بما بقى معه خمرًا، وما هى بالخمر، إنما هى سموم تقتل بالتدريج، وربما قتلت من فورها. تشتد حاجة المرأة والأولاد، فيأخذ كل منهم على طريق معوج، والطرق المعوجة شتى. أليس من هؤلاء بعض من ترى من الصبيان، يطوفون فى الطرق بلا مهن أو فى مهن حقيرة؟! يتسلط النزاع فى الأسرة، ويسير كثير من النساء والرجال فى طرق غير شرعية، ويكثر الطلاق والزواج، ويأتى الأسر الفساد من كل مكان.

إلام تصير الأمة، والأمة جسم مؤلف من هؤلاء، ومن الذوات المبذرين، والأوساط، وبعض الأوساط ساقط فى الرذيلة؟!!

إن الضرر الذى يلحق أمة مثل أمتنا، من تبذير الذوات مضاعف، لأنهم إذ يسرقون فى أموالهم، يشترون بها أشياء من غي بلادهم. أما الأمم الحية، التى فيها حاجاتها من المصنوعات وغيرها، فتبذير الفرد منها ليس معناه إلا خروج المال من يده فقط.

من الواجب أن يكون منك رقيب عليك فى جميع أدوار حياتك، فإن السقوط فى الرذيلة ممكن فى كل دور. إن أشخاصًا فرطوا فى جانب الاستقامة، ونالوا من الرذائل بعد أن جاوزوا غالب العمر. يسقط الرجل فى هذه السن فى لجة الرذيلة، ولا يجد وسيلة إلى النجاة حتى تكبه فى النار.

جاء فى سر النجاح ما يأتى، بتصرف:

«إن الشاب الشارع فى خوض بحر هذه الحياة، محوط بكثير من التجارب، ليس له أن يقف عندها، بل ينبغى أن يمر بها كريماً. وإذا تصدت له التجربة الأولى فأعرض عنها، تخلص من طائلتها حياته بأسرها، ولا تلبث مقاومته للتجارب حتى تصير عادة له، والمرء بما يعتاده. أما من تصدت له التجربة الأولى ونال منها، فإنه يضعف عن مقاومتها، ومتى تغلبت عليه التجارب حطته إلى أدنى دركات الهوان، ونزعت منه قوة الدفاع تدريجاً، حتى تجعله غير قادر على تجنبها. انتهى».

وإذا كانت التجربة التى سقط فيها هى الخمر، لم تكن رذيلة واحدة. فإن شربها جماع الرذائل. والله لحمل الحر لل سيف، وسعيه به إلى الوغى لا يدرى ما يفعل به، أقل خطراً عليه من قصده إلى حانة! فإن فى سعيه إلى ساحة القتال تعريض جسمه إلى الأذى، وفى قصده إلى الحانة تعريض شرفه إلى الأذى، وشتان ما بينهما. كم كأس ساقى الشارب إلى نخاز، حتى ود عند صحوه لو أتت عليه أحقاب وهو مقبور. هذا إلى ما يصيب الجسم والمال من الفساد. إذا قلنا إن نحو نصف الشر الذى يقع على الأرض لحسو الخمر، فما أخالنا أبعدنا كثيراً. دع خيال الشعراء فيها وما يقولون، إن ابتغيت الرشد، وذرههم وغواتهم، والشعراء يتبعهم الغاؤون.

إياك والخمر، إياك والخمر، فإن سرورها ساعة، قد يوقعك فى الخسران والأسف دهنراً طويلاً. كن كما شئت، واحذر الخمر، فلن تستطيع أن تكون شقيماً كما تشقيك الخمر!! وهل يقدر السكير أن يذر الخمر؟ نعم إذا أجهد نفسه، فإن شربها عادة، والحر قادر على ترك العادة. فكر فيما أنت معرض

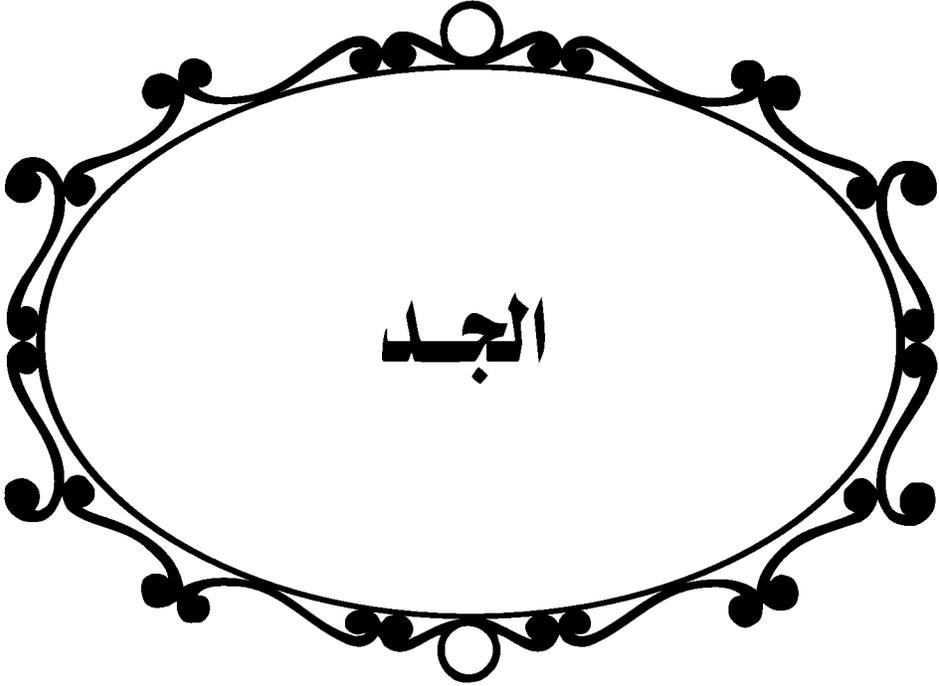
له من الخطر! مثل لنفسك ما يصيبك من الأذى، فى جسمك وعقلك، وما أنت فيه من السرف القبيح، واعلم بأنك إنسان، وما ينبغى أن تكون عبد الشهوة! إنما أنت امرؤ يعرف أن الخير فى إنفاق المال فى الخير. فكّر برهة فى دينك الذى هو خير صديق ناصح لك، وهواك الذى هو ألد أعدائك! إن تدعن وترد الخير تترك الخمر. اذكر قول بولزن الألمانى: من أراد أن يصير امرأ آخر أمكنه ذلك، وما عليه إلا أن يعتصم بالأسباب القوية والوسائل النافعة، لا بالأمال الكاذبة والأمانى. وقول البوصيرى:

والنفس كالطفل، إن تهمله شب على حب الرضاع، وإن تفضمه ينفطم

بل اذكروا قول الله تعالى:

﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٣﴾ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٤﴾﴾ [سورة العصر].

\*\*\*



## الجد

فقل لمرجى معالى الأمور بغير اجتهاد، رجوت المحالا

خلق الله تعالى الأرض، وأسكن فيها الأمم، كل أمة فى صقع، وناط  
ثروة أهلها وخفض عيشهم بجدهم، لا بخصب ديارهم ولا بعدهم.

فإذا أتيت بلدًا من سويسرة، وسويسرة بلاد جبلية قليلة السكان، راقك  
منه بناء مشيد، ومصانع منتشرة فى جميع أرجائه، ومرافق شتى، وطرق  
نظيفة واسعة مستقيمة، يتعاقب فيها ضوءان، ضوء من الشمس، وضوء من  
المصابيح، بحيث يسهل جوبها ليلاً، كما يسهل تطوافها نهاراً. وإذا أزمعت  
سفرًا من ذلك البلد، لم تجد فى السفر كلفة عليك، فما هو إلا أن تريد،  
فتركب القطار، فتسافر، فتصل إلى مقصدك. وإذا انتهى بك الطريق إلى جبل  
من جبالها الشامخة، وجدت أثر الزارع، ويد الصانع، فى سفح ذلك الجبل،  
حتى تبلغ ذروته.

أما إذا أتيت بلدًا من مراكش، وما مراكش بأقل سكانًا ولا أدون خصبًا  
من سويسرة، رأيت مساكن غير طيبة، ترصفت على غير نظام، وطرقًا ضيقة  
معوجة، تمسك بقايا المطر حينًا، كما كان يرى فى طرق القاهرة من قبل،  
بحيث إذا عن لك جوازها نهارًا، تجشمت المشاق، بل جوازها فى ليلة  
مطرة، احتجب قمرها وتوارت نجومها. وإذا عرضت لك نقلة إلى مكان آخر  
ناء، اكتريت بغلاً أو حمارًا، وسرت أيامًا، ينال منك النصب، ويروعك  
خطر الطريق. هذا بأن الإنسان الذى قطن فى سويسرة، عمل وجد، على  
حين أن الذى قطن بمراكش، أهمل وتراخى.

قد جرت سنة الله، أن تُسبق المطالب بالمتاعب، وتُلْتَقَط الراحة من  
النصب، كما قيل: «إن أردت ألا تتعب، فاتعب لثلاثا تتعب».

وهب الله للإنسان، فى عقله وجسمه، قدرة يطرق بها أبواب الخير،  
ويستفتح بها السماء فى التماس رزقه، وقد قال عمر رضوان الله عليه «لا  
يقعدن أحدكم عن طلب الرزق، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا  
فضة».

سهل الله تعالى للمرء من الخير، بمقدار ما أفاض عليه من تلك القوة،  
فلا يحل له أن يذر أعمالها، ويسأل الرزق بلسان العاجز الكسلان، كما لا  
يحل له أن يُعطل منها.

### ولم أر فى عيوب الناس عيباً كنعص القادرين على التمام

إن العامل الذى رزقه الله قوة يقتدر بها على السعى لتحصيل أربعة  
دراهم، لا يحل له أن يبذل منها بمقدار درهمين. والطالب الذى يستطيع  
تحصيل عشر مسائل، يظلم نفسه إذا رضى منها بخمس. وعلى كل امرئ أن  
يجمع قواه فى كسب ما هو ميسر له؛ ومن لم يفعل، كان مثله كرجل يملك  
بيتين، يغتل واحداً منهما ويدع الآخر لا ينتفع به. هذا سفه.

وهب الله تعالى للإنسان هذه القدرة، وجعل له أن يصيرها إلى ما  
يشاء، فإن شاء جعلها ذهباً وفضة، وثروة طائلة، ويات فى عداد الأغنياء.  
وإن شاء جعلها عاماً، وأضحى فى عداد العلماء، وربما أضحى فى عداد  
الولاة والأمراء. لئن كان للكيمياء إكسير، إن هذه القدرة إكسير الكيمياء، أو  
كان للكنز كما يقال رصد، إن هذه القدرة مفتاحه. نعم هذه القدرة هى إكسير  
الكيمياء، ومفتاح الكنوز؛ فعول عليها، ودع قول المغاربة والكتب العتيقة.

هؤلاء العلماء، وكلهم كانوا أطفالاً، أخرجهم الله من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، وجهوا هذه القدرة، والقدرة هي الوسيلة الحقة إلى كل شيء، إلى العلم، فأصبحوا علماء. وهؤلاء الأغنياء، الذين لم يرثوا المال عن أب ولا أم، جدوا فزايلا الفاقة، واستولوا على ثروة واسعة، بإعمال قدرتهم، والقدرة هي الوسيلة الحقة إلى كل شيء.

فالمنشاوى باشا، كان مبدأ أمره في عمل صغير لا يملك غيره، فجد حتى صار إلى ثروة طائلة، وترك ميراثاً منه بضعة عشر ألف فدان. والناضورى، ذلك التاجر الشهير بالإسكندرية، الذى أتى على موته بعض سنين، كان مبدأ أمره أجيراً، ثم جد حتى صار فى ثروة واسعة. وويصا بقطر، المثرى الشهير بأسوط، كان غلاماً يتيماً فقيراً، لا يملك شيئاً. وسوارس الذى ترى من ثروته آثاراً فى كل طريق، كان غلاماً يتيماً فقيراً. وعلى باشا فهمى، الذى مات قريباً وخلف أموالاً جزيلة، كان فقيراً، وصار إلى ما صار إليه بالجد؛ ولكننى لا أرضى لك أن تكون بخيلاً كبعض هؤلاء. وما أحقر ثروة لا تُشاطر فيها المروءة والحمد!

إنك مسئول عن جدك لأمرين: أما أولهما، فإن الكمال من حق نفسك عليك، وما أنت ببالح الكمال إلا بالجد، كما لا تستطيع أن ترقى بغير سلم. وأما ثانيهما، فإنك مُطالب لقومك بالعمل، لأنك تجد سعادتك فى أعمالهم، فعليك أن تعمل لهم عملاً يجدون فيه سعادتهم، حتى لا تكون وضيعاً صغير النفس، يستحل شيء غيره، ولا يعوضه عنه ما يستطيع.

لُودُن النباتى، كان غلاماً لبستاني، وكان يدرس ليلتين فى الأسبوع، حتى تعلم اللغة الفرنسية، وترجم سيرة شهيرة، قبل أن يبلغ الثامنة عشرة.

ولما بلغ العشرين من عمره، كتب في مفكرته: «الآن قد بلغت السنة العشرين، وربما كان ثلث حياتي قد مضى، فما هو العمل الذى عملته لإفادة بنى نوعي؟» فعسى أن تجد أيها الطالب من نفسك هذا الشعور الحق، ولو بعد وصولك إلى ضعف هذه السن! إن الطبقات المختلفة من هذه الأمة، ليس لها آثار تدل على جد ونشاط، لا تفضل طبقة منها الطبقة الأخرى. هذه طبقة الزراع واقفة فى مكان لا تتجاوزه صنوف من المزروعات محدودة، وطرق لزراعتها مألوفة، لا تتخطاها، ولا تصلح منها شيئاً. وهذه طبقة الصناع، فى يدها بقايا ورثوها عن قبلهم، عاكفين عليها يعملون فيها عمل الآلات التى فى أيديهم. بل هذه طبقة المشتغلين بالعلوم والنفوس، لا يفضلون من قبلهم. تبلغ كل الأطفال أشدها وعلومنا ومعارفنا وطرقنا، لم تزل بعد فى عهد الطفولية. وبالجملة، فالروح الضعيف العام السارى فى مجموع الأمة، ظاهر فى كل طبقة من الطبقات، كالنهر تتصل به جداول صغيرة فىبقى سطح الماء فى جميعها على ارتفاع واحد.

أيها الناس! إنكم إلى قول الحق، وتنبهكم إلى مواضع نقصكم، أحوج منكم إلى المدح والنفاق. وإن الذى ينبهكم بنية سليمة إلى مواضع نقصكم، إنما يبغي صلاحكم. أما الذى يبحث عما ترضون عنه، ولو اختلط بالنفاق، فإنما يبغي صلاح نفسه. إن الكسل أفسد فىنا كثيراً، فعلىنا برأب ما أفسده فىنا الكسل.

إن كان الفتور، والاكتفاء بتحصيل الصور الظاهرة، مما لا يلام عليه الذين يعملون فى المادة، كالصناع، لوماً موجعاً، فما أشنعها ذلة أن يكون الاكتفاء بالصور الظاهرة، يقع من الذين يعملون فى العلوم وتقويم النفوس؟!!

فإن هؤلاء غير مسئولين عن صور وهياكل، إنما هم مسئولون عن الروح السارى فى الأمة.

لتكن أعمالنا حية باستقلالنا وروح منا، وإلا كنا ممن يكثر الجز ويخطئ المفصل. لا نكون كإخواننا الأزهريين، يعملون كثيراً وليس لعملهم أثر. ذلك بأن روح الاستقلال السارى فيهم غير كاف.

إن الأمة، مع ما منيت به من قلة الأعمال، وضعف الروح فيمن يعمل، ابتليت بكثيرين لا عمل لهم، فى ذواتها الذين تكلمنا عنهم فى الصبر.

وأنواع الشحاذين، ما بين سائل، وزامر، ودفاف، وقائد لقرء، وكلهم شحاذ، هؤلاء جميعهم لا يعملون شيئاً، ويشاركون الناس فى ثمرات أعمالهم. يُلقون أوزارهم على كواهل العاملين، والعاملون لا يستطيعون النهوض بأنفسهم، فهم كما يقال فى المثل «إن ضج فزده وقرا».

إن هؤلاء الأعطال، لا ينبغى شرعاً ولا عقلاً مدهم بشيء، ب يجب الصد عنهم، وتركهم تتخطفهم الفاقة، حتى يذوقوا من بطالتهم آلاماً، كما يأتى فى السخاء إن شاء الله. إن فى ترك العمل، وعدم الجد، مضار كثيرة، والمرء الذى لا يأخذ بالجد، يظلم نفسه، ويظلم الناس الذين يعيش معهم.

بالبطالة يُخمد الرجل جذوة فكره، ويعود جسمه الترفه والعجز، فلا يجد منه خادماً صالحاً.

فى الطبقات، من رواية البخارى ومسلم، أن النبى ﷺ استعاذ من الكسل، وعن على رضى الله عنه أنه قال: «إنى لأرى الرجل فيُعجببنى، فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا: لا! سقط من عيني».

وقال بسمرك يوماً في مجلس النواب «لا نعد الرجل، ليس له عمل، كاملاً».

إن القوة البهيمية تخرج بالعاطل عن الاعتدال، فيصير إلى الفساد، ولا سيما إذا وجد عضداً من شبابه وماله.

### إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أى مفسده

يبين لنا أن أكثر الشرور التي تقع، يُسعر لظاها الأعطال، فإذا بحثت عن سيرتهم، رأيت المستقيم منهم نادراً أو مفقوداً.

ولا يفوتنا تخصيص أقراننا بخطاب: فأنتم أيها الإخوان خريجي دار العلوم! قد شدت بكم اللغة العربية أزرها، ووجدت منكم ملجأ لها في المدارس، وأصبح شبان الأمة بعنايتكم يعرفون لغتهم على وجه مناسب، وكثر فيهم الكتاب. ومن أراد أن يغمط حقكم، ويحط من شأنكم، فليقابل بين الشبان والكهول الذين تعلموا في عهدكم، وبين الشيوخ الذين تعلموا في عهد سلفكم، فإنه لا يجد بداً من الاعتراف بما لكم. نعم يؤخذ علينا بعد هذا، أن عدداً منا لا يُعنى ببسطة علمه. يجد عندما يُتم دراسته في إجادة ما يلزم للتعليم الابتدائي، من القواعد والأمثلة، حتى إذا علم السنة الرابعة بكفاءة تروقه، أو كفاءة ما، أسند ظهره، وألقت عصاها واستقر بها النوى.

يقتل عدد منا زمنه بالجلوس في القهوات، وسط العامة؛ وبعضنا يؤدي عمله كما تؤدي الآلات عملها، لا يعنى إلا بانتقال الدرجة وزيادة لراتب. إنه، ليس كل واجبنا في أن نعطي قواعد النحو، سهلة مقربة لأذهان التلاميذ، مُجلاة بالأمثلة والشواهد!

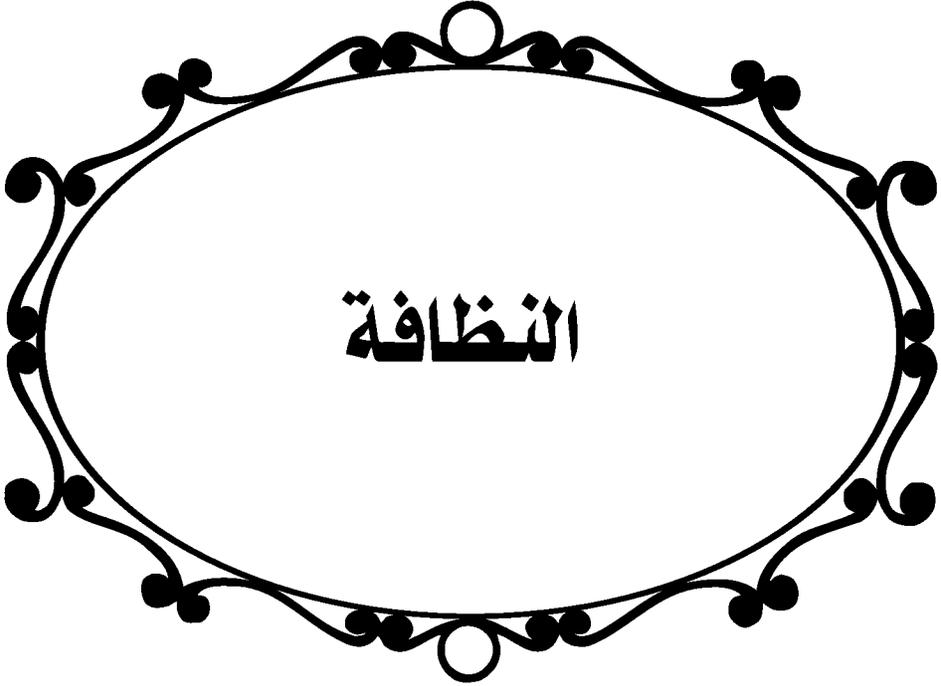
إذا فثشنا عن المطالبين أمام الله تعالى لأمتهم بتهذيب نفوس أبنائهم،  
وبث الفضيلة فيها، وغرس مبادئ الدين حتى تثمر ثمراً طيباً، لا نجد غيرنا.  
وإذا بحثنا عن عمن في عنقه تهذيب قواعد اللغة العربية، لا نجد غيرنا.  
وإذا بحثنا عن المطالبين بإصلاح مؤلفاتها وبعث روح من النظام فيها، لا نجد  
غيرنا.

بل إذا بحثنا عن هو المطالب بإصلاح نفوس العامة، قدر ما يتيسر،  
ووضع الكتب المناسبة المقومة لأخلاقهم، لا نجد غيرنا. وإنه لا يتيسر لنا  
جميعاً الكمال إلا إذا ثابر أفراد منا على دراسة اللغات الأجنبية، حتى نترجم  
ما نحتاج إليه، ونحن محتاجون إلى كل شيء.

قررت نظارة المعارف جعل التعليم باللغة العربية، وهو مشروع إذا  
استقبله التجار مثلاً بأحسن، لا يجوز أن نجلس معهم في القهوة، ونقول  
مثل ما قالوا، بل يجب أن نشعر بالواجب الذي ألقاه هذا القرار على  
كواهلنا.

يجب أن نشعر بالواجب الذي نطالب به لهذا الجمهور الذي يسعى في  
خدمتنا؛ وإلا فما أحرانا ونحن جلوس على القهوات في قتل أوقاتنا، بأن  
يسخر بنا هذا الجمهور، وينظر إلينا نظره في أحقر الصناعات!

أما أنتم أيها الطلاب! فإن ما أنتم فيه من الجِد، لا يُطلب من المرء أكثر  
منه، ولكني ألفتكم إلى قرن هذا الجِد بالاستقلال، فإن الاستقلال روح  
العمل. وعسى أن ترفعه من بعد همة عالية عن قتل أوقاتكم على القهوات،  
بمعزل عن واجباتكم؛ وعليكم بالسعى في نفع الناس والمحافظة على الوقت،  
إن الوقت نفيس.



## النظافة

إذا كان الظالم يصير إلى الظلم لما يجد فيه من شفاء النفس ، والكذاب يصير إلى الكذب لما يرى فيه من جلب منفعة أو دفع مضرة ، فما هي الثمرات التي يراها الوسخ من وصحه ، غير أنه لا يرى؟! وما هي الفائدة التي يشعر بها غير أنه لا يشعر؟!!

إنه لا يستطيع أحد أن ينازع فيما وصلت إليه الطبقة المتعلمة في الديار المصرية من النظافة في هذه السنين . كنت في سنة ١٢٩٨ هجرية تلميذاً بمدرسة الجمالية ، فكان تلاميذ المدارس حينئذ أقل نظافة من تلاميذ الكتاتيب الآن . كان بعضهم يأتي إلى المدرسة وفي رجله قبقاب ، وبعضهم يجيء غير منتعل ، وأذكر من هؤلاء الحُفَاة تلميذاً اسمه جوهر ، لم يكن ينتعل في السنة يوماً ، وكان للوسخ أثر أسود على ظهر قدميه ، لم يفارق بعد مرآه ذاكرتي على ضعف فيها ، وسيبقى عالقاً بها . وقل في طرايبشهم وثيابهم ونعالهم من البلى والتباين ما تشاء . أما الآن فإنك لا تجد مثل هذا في الكتاتيب ، كتاتيب نظارة المعارف . وإن التقدم في النظافة قد سار سيراً حثيثاً . غبت عن مصر أربع سنين ، وعدت إليها من سبع سنين ، فرأيت في النظافة والأزياء تقدماً أي تقدم .

إن مخالطتنا للأوروبيين ، وهم بلا شك أنظف منا ، أثرت فينا تأثيراً حسناً ؛ كما أثرت فينا مخالطة الترك ، الذين ينبغى أن يعزى إليهم ، خصوصاً ، إصلاح بعض بيوتنا ، لاشتداد اتصالهم بأسرتنا . إن كان الترك يبعدون في ساقامة الذوق عن الأوروبيين شيئاً ، فإنهم ، قدر ما أعرف ، يماثلونهم في أمر

النظافة أو يكادون. ولكن رغم هذا بقيت الأسرة المصرية متأخرة فى أمر النظافة، وإن كثيراً جداً مما يكدر السلم فيها، مسبب عن إهمال شأنها. نعم، إن المرأة تهتم بأمر النظافة، وتحسبها بحق من قبيل الزينة التى هى مولعة بها، ولكن هذا الاهتمام أو الحسبان راجع إلى نظافة نفسها فقط. والمرأة النظيفة فى ذاتها، كثيراً ما تؤخذ عليها أمور فى نظافة منزلها وأولادها.

وإن سواد الناس، وهم لم يخالطوا الرك والأوروبيين، لعلى تقهقر يظهر فى صور شتى!

عيوب مطاعمنا (لوكانداتنا للأكل) ليست رداءة اللحم، ولا سوء الخضار؛ إنما هو الوسخ. عندنا كثير من المطاعم، ومحال الأكل المختلفة، ولكن التنظيف منها معدوم. المحل، والخادم، والأدوات، يبارى بعضها بعضاً فى الاتساخ، «وإن الشراك قد من أديمه». لا يستطيع نظيف أن يصيب من الأكل فى هذه المحال، وإن أغمض فيه. وإذا اشتهر عندنا صانع بنوع من الطعام، لا يجد على شهرته إقبالاً، ولا ينال من الريح ما يقتضى اسمه. إن داءه العُضال، والعقبة فى طريق الناس إليه، هما بُعدُه عن النظافة، وزهده فى الترتيب.

لا يستطيع واحد من أغنيائنا أو متوسطينا، أن يجهز وليمة يُعنى فيها بالنظافة ويراعى الترتيب، إلا إذا وكل الأمر فيها إلى عمال من الأوروبيين. ما أحوج الناس إلى النظافة والترتيب! وبالجملة، إن الطعام الذى لا تمسه صناعتنا، أشهى إلى النفس وأقرب إلى الصحة.

باعة الشراب عندنا كالحروب ونحوه، يُعرض عنهم التنظيف على عطش. يلبس واحداهم غالباً لباساً قذراً، يجعل عليه فوطة مثله؛ ويده

ورجلاه، وقلما تكنهما نعلان، لا تخلو من وسخ. ويحمل آنية فيها الشراب، وفي إحدى يديه أكواب أو كيزان لا تسكن حركتها، ولا تهدأ صلصلتها، بصوت لا يفتح له سمع، ونغمة لا يعثرها تغير؛ وفي يده الأخرى إبريق من الصفيح صغير، ربما وسع رطل ماء، يغسل به الأكواب لمن يحتشمه. فإذا استسقاها أماله في الكوب أو الكوز، حتى يكاد يجعل عاليه سافله، إلى أن يسيل من بلبله الدقيق دراهم فيه، فيرُجُه بذلك الماء رجاً هيناً، يأتي على بعض سطحه، اجتزاء شافعي في مسح رأسه للوضوء، ثم يرمى بمائه إلى الأرض، وقلما يسمع له ركز، ثم يعده للصب فيه، ويسلط عليه القدر حتى يفيض على يده، ويكون للأرض منه نصيب. إنه في يد موفقة للاتساخ، لا في يد كريم. ويناولك إياه، والشراب يتقاطر من كليهما، ولولا مد يدك إلى الأمام مدها للسلام، وانحناؤك للإصابة منه، لأصاب لباسك منه قبل؛، يفعل هذا، وزميله الأوروبي أمامه، وبين يديه نحو عجلة صغيرة مقفلة؛ أما باطنها فقد تضمن الماء النقي، وأما ظاهرها فقد رصف عليه الأكواب، إلى ما يستدعيه إتقان عمله.

قهواتنا لا تصلح للجلوس، ليس لأن بُنْها رديء، ولا لأن ماءها من غير ما في أيدي أنظف الناس؛ داؤها العضال الاتساخ. المحل غير نظيف، والأدوات لا تكفي نظافتها؛ وإذا نهبت الخادم، بادر إلى تنظيفها، بيدٍ أحوج منها إلى النظافة. هذا إذا صح في ذهنه ما تقول، أو احتشمك، وكثيراً ما ينكره عليك.

الفنادق عندنا، لا يلجأ إليها إلا مضطر ساقته الحاجة، داؤها العضال اتساخها. إذا جعلت (اللوكاندة) أو الفندق في بناء جديد، فما هو إلا زمن

قصير حتى ترى البناء قدراً، يسبح فيه البق، وتهتدى إليه العناكب، كأنما أتت عليه أحقاب من الدهر. ومثل هذا يقع أيضاً فى بيوت بعضنا، ولو قصوراً مشيدة، حتى لا يستطيع خدن النظافة اضطجاعاً على فراشها، إلا إذا بسط عليه شيئاً.

خادمونا وخادمتنا فى منازلنا، من عيوبهم التى لا تغتفر، الوسخ. فما هو إلا ريثما تقل عناية أصحاب البيوت بالنظافة، ويهملون قليلاً فى قيامهم عليها، حتى يعود المنزل كاللوكاندة الحسينية أو الزينية.

إن كثيرين منا يستخدمون الأوروبيات بالأجور الغالية، حتى يريحوا شعورهم بما فيهن من النظافة، بله حسن الترتيب. نتهم أولئك بالترفنج؛ فنحن ظالمون وهم معذورون. إنهم يقدرّون النظافة حق قدرها، وتُيلها أنفسهم النقية عناية.

إنك تجد الأحياء الوطنية، بيوتها وطرقها، سواء فى القاهرة وغيرها، دون الأحياء الأوروبية. فإذا نظرت إلى جهة الباطنية وما يضاهاها من الجهات التى نحن قُطانها، وجدت خارج البيت وداخله يُنم على اتساخه، وفى أول ما ينم عليه بقره وبراعيته. إن كان سكان هذه الأحياء، لفقروهم، لا يستطيعون أن يصلحوا منازلهم كل الإصلاح، فلا يعجزهم أن يزيلوا ما يعلق بشبابيكها، وينظفوا سقوفها وزواياها من التراب والعناكب، التى تهتدى إليها اهتداء القطا، ويوالوا غسلها بالماء، ويُجنبوا صحنونها القذر الذى يُطرح فيها. ألسنت تجد فى هذه الأحياء، أن الطرق التى ليست حافلة برجال الشرطة، وإن كانت حافلة بالسابلة، يضى الناس فيها حاجاتهم، قياماً وعوداً، على مقربة من الجوامع المنتشرة فى تلك الأحياء، وفيها تكثر المرافق (المراحيض)؟! أليست

القطاط أهدى إلى الصواب، وأقرب إلى النظافة؟! كثرت الكتابة على الجدران بكف الناس وهم لا يكفون! ألم تك هذه الكتابات الكثيرة شاهداً على تساهلهم في أمر النظافة؟! إنما كان ترديد البغواء عندنا لألفاظ السب، شاهداً على تساهلنا في آداب القول، وأن الهجر أعلق بألستنا!

إذا حضرت احتفالاً، كالجمعة، عثر بصرك في ألوان من الساهل. فمن سائس حاضر الاحتفال بحاله، كما كان يغسل الحصان؛ أو نحاس تشهده كما كان يستدير في طشت أو غطاء ليجلوه قبل عرضه على النار؛ أو مجلد يجيء إليه كما كان، وعلى حجره قطع الجلود الملونة الندية! ولا يخطر ببال واحد من هؤلاء، أن الذي خاطبنا بشهود هذا الاحتفال، خاطبنا بأن نغتسل له، ونذهب إليه في الثوب النظيف! هذا إلى أن الجامع قد يكون قذراً، وحصيره بالياً وسخاً، وللطير عليه أثر غير حميد، كجامع الدرب الجديد، بقرب السيدة، ساقنى إلى الصلاة فيه قُربه من منزلى.

أما في القرى فيلقى كل قذر يخرج من البيوت بينها، ويبقى السنة والستين، حتى يصير كثباناً، ويا ليتها كانت من الرمل! وتطيف بالقربية المياه الآسنة، وتتخللها، وآونة تختلط بها مجارى الجوامع. وهناك تُبنى البيوت بغير مرافق إلا نادراً، ويقضى الأولاد حاجاتهم في الطرق. وأكثر الناس لا ينتعل، وبعض هؤلاء ينتعل يوم الزينة. ألم تر إلى الناس، وخصوصاً هناك، يرون عدم استعمال الماء شفاء من أمراض كثيرة؟! يعالجون به الجراح! ومن اليبين أنه لولا تنظيف الجراح لسارع إليها الفساد، والرمد! ومما يغمس في العجب، أن بعضهم يُضيف إلى العلاج روث الحمير، والعين عضو لطيف، ينبغي أن يجنب القذر وإلا سارع إليه الفساد! ولو نظرت إلى عيون الذين

يشتغلون فى المرافق يطهرونها، لأيقنت بصحة القول! ويعالجون به الحصبة، ويجعلون اتساخ الأولاد ترسأ يرد عنهم كل حسد؛ ولو كانت وظيفة العين الحسد، لا الإبصار، لكانت أبقى عليهم من هذا الاتساخ الممقوت. إن الناشئين، وخصوصاً هناك، لا يعرفون شيئاً من أمر النظافة. وحسبك ما تراهك فيه من رمص العينين، وذنن الأف، وتناول القدر لجميع وجوههم، وسقوط الذباب عليها! وإن أحدهم ليحمل على غسل يديه، كما يحمل الكريم على نقيصة! وإنه ليساق إلى الاستحمام، كما يساق إلى الموت! إنه لم يعود النظافة!!

لا يستطيع متأمل أن ينكر أن الأوساخ تفسد الجلد، كما يفسد الصدأ الحديد. كنت وفى عهدتى تفتيش الكتاتيب، كتاتيب نظارة المعارف العمومية، أجد أن كل كتاب منحط فى النظافة، يوجد فيه قرع؛ وكان هذا المرض يبين فى أشع صورة فى القرى، وخصوصاً فى الوجه القبلى، لأن نظافته أقل. وفى ظنى أننا لو اطلعنا على إحصائيات للأمراض المقترنة بالاتساخ، لعلمنا من أنفسنا تقصيراً أى تقصير!

وبالجملة، فإن اختطاط الدور فى القرى بلا مرافق، وعدم انتعال أهلها، وأكل الناس فى آنية واحدة، خصوصاً السوائل، بلا مبالاة بأن هذا الأكل نظيف وذاك وسخ ينبغى تجنبه، وشربهم كذلك، ونحو التمسك الشديد بالميضات يصبقون فيها ويمتخطون، ويغسلون وجوههم وأفواههم، بله التبرك بها فى الموالد، على زيادة قدرها، وعدم الرضا بأن تبدل منها الحنفيات أو الصنابير فيما يقولون، وأمور أخرى لا أسميها، - كل هذ يدل على أننا لم نزل بعد فى طور البداوة، أو قريباً منه، وأننا لم نعمل فى سبيل النظافة أقدامنا إعمالاً يذكر.

ليس ينسى الكثيرون ذلك الجدل العنيف، الذى قام بشأن الحنفيات والميضآت، كما لا ينسون أن سواد الناس وقادتهم من المشتغلين بالعلم، كانوا على اختيار الميضآت. إن القول بأن الميضآت أخلق بالاستعمال من الحنفيات، كالقول بأن سربال الطباخ أنقى من مرآة الغريبة، وأنظف من قلب المؤمن! فى ظنى أن الذين لا ينظر إلى أمر الآنية أو اللباس مثلاً، إلا بنحو إرشاد عام، كاختيار ما هو أنظف، أو أقرب إلى الحشمة؛ ولكنها الحضارة تحل هذا اليوم وغداً تصيب خيراً منه، فتحرم القديم وتحل الجديد!

نتج من عدم نظافتنا أمور: أن ضاق الرزق على كثير منا فى بلاد رزقها واسع، وساء حال الذين يحترفون بعمل الأطعمة ونحوها، وحاربنا كثير من الناس فى ديارنا فانهزمنا أمامهم، هزمنا الاتساخ وسوء الرتيب فى كثير من المواطن، وابتلينا بالأمراض نحن وأبناؤنا الذين وقعوا تحت رعايتنا، وتكدر السلم فى أسرنا أونة وأحياناً كثيرة؛ كل هذا لأننا ما رعينا النظافة حق رعايتها.

خزى وعار على أمة القرآن أن يكون قسطها من النظافة هكذا! وقد جاءها الدين الإسلامى من أكثر من ألف وثلثمائة سنة مفعماً بها. حكى الغزالي عن النبى ﷺ «بنى الدين على النظافة». ويروى «النظافة من الإيمان».

وليس هذا كل ما جاء به الدين الإسلامى فى النظافة، بل هناك باب الطهارة، باب كبير لتفصيل أمور الطهارة والنجاسة. وليس معنى الطهارة إلا النظافة، ولا النجاسة إلا الوسخ، إلا ما كان تعبيراً. ألا ترى كيف تجرى الطهارة على لسان الطب، بدل النظافة؟! هذا بأن الطهارة تشعر بنظافة أدق، وهو ما يريد الطب.

فرضت الشريعة على كل مسلم أن يطهر ثيابه ومكانه من النجاسة ويتوضأ، وإلا فلا عبادة له، أليس معنى الوضوء أيضاً النظافة! خاطبته بنقاء نفسه وثيابه من كل ما يستقذر في جميع الأوقات، مع التشديد في أمر المستكره منه؛ وجعلت عليه أنواعاً من الاستحمام والوضوء، وغسل اليدين والفم، وترجيل الشعر ومس الطيب، خصوصاً عند شهور الاجتماعات؛ وأرشدته إلى السواك لتنظيف الفم في كل حال؛ كما أرشدته إلى مواضع تغيب العناية بها، كداخل الأذن وتحت الأظافر؛ وكما أرشدته إلى قص الزوائد، كتقليم أظفاره. ومن أراد الوقوف على التفصيل فليرجع إلى كتاب من كتب الفقه، كالإحياء للغزالي، فإنه يجده في الجزء الأول منه.

والذي يهمنى أن أقول إجمالاً: إن الدين الإسلامي دين النظافة؛ وإنه يشمئز جداً من الوسخ ويطلقه على الخبيث، كقوله تعالى: إنما المشركون نجس؛ ويهش إلى الطهارة، ويطلقها على الطيب من كل نوع. وآيات التنزيل حافلة بهذا.

وإني، مع امتلاء نفسي بأن الدين دين النظافة، التمت آيات صريحة من الكتاب العزيز في شأنها فلم أقع عليها، فكلفت الحافظين المشتغلين، فلم يهتدوا إلى شيء، فامتلاً فؤادي عجباً! ولما ألقى في نفسي أن الطهارة والنظافة شيء واحد، كما أن النجاسة والوسخ شيء واحد، خلّنتي أتيت بجديد لم يهتد إليه من قبلي! والأمر بديهي، خصوصاً لمن كان مجاوراً مثلي، لولا تعليم لا روح فيه!

إن تعليم كثير من أمور الشريعة في الأزهر جاف وجامد، وإنه إلى إماتة النفوس أقرب منه إلى حياتها، وإلى العبث بهذه النفوس البشرية أقرب منه

إلى صلاحها. لا أطيل الآن، وإن كان للقول مطرح، وأكتفى بإبداء رأيي،  
عسى أن يكون صالحاً في تعليم هذا الباب، باب الطهارة.

أولاً: توجيه الطالب إلى أن الطهارة هي النظافة التي تعرفها على حال  
أدق، حتى يتصل ديننا بحال من أحوالنا، وحتى إذا مر بمسائل الباب نظر  
إليها نظراً صحيحاً نافعاً.

ثانياً: كمال الطهارة في الدين الإسلامي، وسبقه فيها على الأديان  
الأخرى، حتى يرسل الدين جذره في نفوس الطلبة إرسالاً، وحتى يقيموا منه  
لأنفسهم وغيرهم، إذا اقتضى الحال، حجة عملية قوية. فعصر اليونان الذي  
كان يسبح فيه الخيال ما شاء - تقضى، وهذا عصر أوروبا وأمريكا، يقتضى  
نظاماً آخر.

ثالثاً: النظر في ثمرات الطهارة، ومضار النجاسة.

رابعاً: عرض الفروع التي أتت في الباب مع آراء العلماء فيها للبحث  
النافع، مع النظر في بقية أصول الباب، كما به يكون التطهير.

خامساً: إعارة أحوال الناس لفئة، حتى يرتبط الدين الذي نتعلمه  
بالعالم الذي نعيش فيه. فإنه ما دامت الصلة قوية بين علمنا وعملنا، سرى  
فينا حقيقة روح طيب، وتم لنا من الخير ما نحاول.

\*\*\*



## الانتظام

ليس الانتظام، كما قد يتوهم كثيرون ممن لا يعيرون الأشياء من النظر حقها - أمراً راجعاً إلى إبراز الأشياء في صور مزخرفة، تسر الناظرين، وتخلب عقولهم؛ بل يرجع إلى حسن تقدير الأشياء وترتيبها، كما ينبغي، وذلك واجب ضرورة في كل شيء. الشخص، والأسرة، والمدرسة، والحرف والصنائع، والأمة، كل أولاء يجب أن تبني أمورهم على أساس متين من الانتظام، وإلا اختلط بها الفساد.

أما انتظام الشخص فيرجع إلى ترتيبه في ذاته، كاستواء أعضائه، وصحة وضعها في حركة أو سكون. وإن كثيراً من الرزايا، التي يتجشمها المارة بمراًى منك على السبيل، من تردٍ في حفرة، ومصادمة جدار، وتصد للكهربائية تصنع ما شاءت الأقدار، حاصل من الغفلة عن الانتظام. وإن المتعرضين غالباً لحوادث الطريق، وما إخالني مخطئاً، من المعروفين في أحوالهم بعدم الانتظام. فذلكم أعدى الناس إلى الخطر، وأهداهم إليه. وكذلك ترتيب لباسه، فلا يجعل الجبة طويلة فوق الحاجة، وإلا تعثر فيها وتمسك بأذيالها الثرى، وقادها إلى البلى. إن عدم الانتظام في اللباس مناف للاقتصاد، مناف للحشمة. فمن قدم عليه رجلان لا يعرفهما، هذا منتظم في لباسه، وهذا غير منتظم، وقّر الأول وهان عليه الثانى، حتى إنه ليحل بنفسه محل السخر منه، والعبث به. وكذلك ترتيب قوله، فلا يتكلم فيجمع بين الأروى والنعام، ويجعل الأول آخرًا والآخر أولاً، وإلا أتعب السامع، وأفهمه أحياناً غير ما يريد؛ فأنّا يفوته غرضه من القول، وأنا يدعى كذاباً.

وترتيب عمله، وإلا لم يفلته الإفراط أو التفريط، ولم يلق راحة. وفي كتاب بولزن: من أخذ على الطريق بعد فوات ربع ساعة، أخذه عامة يومه عذاب شديد. وترتيب أكله وشربه، ويقظته ونومه، وإلا هزل جسمه، وعدل به عن طريق الصحة، والجسم خادم توحى إليه بأمرك، فلا يستطيع خروجاً عن طاعتك؛ وإذا مرض استحال صفوك كدرًا، ولم يصب بعض غرضك قضاء، ولو اجتمع خدام الدنيا، وكان بعضهم لبعض ظهيرًا. وبالجملة، فإن النظام مطلوب من الشخص في جميع أموره، حتى في الحركة يأتيها بيده، والإشارة يأتيها بأصبعه.

وأما انتظام الأسرة، ونعنى المنزل الذي تقيم فيه، والسيد والسيدة، ومن لهما من الأولاد والأتباع، فيقتضى أن يتعهد المنزل تعهدًا مناسبًا للأسرة، ومن حين استئجاره، أو ابتياع عرضته، حتى يكون ترتيبه منطبقًا على جميع أحوالها؛ وإلا كان كالسجون، إنما يلبث فيها مضطر. كما يقتضى أن يؤدي الرجل ما عليه بترتيب صحيح وضبط، كأن يحضر في أوقات الأكل المقررة، ويجعل أعماله على وجه يمكنه من أن يكون مع الأسرة وقت اجتماعها، حين تتم الأم عملها، ويرجع الابن من المدرسة، والبنت من حيث تتعلم. إن على الرجل لأسرته لدرسًا لازمًا، لا يحل له أن يضيعه، وإن في وجوده بينها لقسطًا لها من السرور وافيًا، لا يحل له أن يمنعه. إنه الراعى فيها، وكل راع مسئول عن رعيته. كما يقتضى أيضًا أن تؤدي المرأة ما عليها للأسرة بترتيب، فإن المرأة هي المباشرة لجميع أمورها المنزلية، والفقرة تحتم عليها ذلك، وإن كان للرجل السلطان عليها، وييده زمامها. المرأة هي المربية للولد، المرتبة للمنزل، المتصرفة في الحاشية، وإن ترتيب المنازل صورة من عقول السيدات

العاملات. المرأة مع بيتها، كرجل نوى سفرًا مع صندوقه، فإذا وضع فيه نعاله وطرايشه وثيابه داخلًا بعضها في بعض بغير ترتيب، لقي كل نوع من الآخر صنفاً من التلف، وساءت الصورة، وربما احتاج إلى شراء صندوق آخر. أما إذ أحسن تقسيم الصندوق، ورص أنواع الملابس رصًا حسنًا أمن تلفها وحسنت صورتها، ووسعها فراغ قليل. المرأة إذا عُنيت بترتيب أثائها أصابت الأسرة بذلكم من الراحة والاقتصاد جانبًا عظيمًا. إنها تستغنى بالقليل من الأدوات، والضيق من الحجر، والصغير من البيوت. يمكنها بواسطة ستائر من الخشب الجميلة مثلاً، تقسيم رحبتها، وحجرتها الكبيرة إلى أقسام شتى تتخذ كل واحد منها اتخاذ الحجر، وتعدده لعمل خاص. إنها بواسطة ذوقها الصحيح، وتصرفها الحسن وترتيبها الجميل، تهب لأسرتها، من وقت إلى آخر حُجراً جديدة ومسكنًا طليًا. إن كثيراً من الأسر الأوروبية التي يُشاقها الحظ، والتي ينقاد لها أيضاً، تستأجر مساكن تبسط فيها فرشها، وتهتدى، بحسن ترتيبها، إلى الاكتفاء بالقليل من حجرها، وتؤجر الباقي.

البيوت هي المدارس الطبيعية للنبات، يقضين فيها حياتهن قبل الزواج أو أكثرها، فإن لم تكن قائمة على صحة الترتيب، أفسدت أذواقهن الفطرية، وقلما يحصلن منها على ثمرة. إن كان في (السنية) أو (عباس) إعانة النبات من بعد على أعمالهن بما يتعلمن من بعض الوسائل، ففي البيوت نفس أعمالهن في هذه الحياة وإن ملاكها الترتيب.

إن على المرأة شيئاً، أهم من ترتيب الأثاث، وأعظم خطراً، ذلكم تنظيم ولدها في أكلهم وشربهم، ويقظتهم ونومهم، وراحتهم وعملهم، حسبما يقتضى العلم الحق. ثم إن كان لها حاشية من طباخ وخدامين، كان عليها الإشراف عليهم وردهم إلى النظام، كلما جاوزوه أو حاولوه.

ويقتضى انتظام الأسرة أيضاً، أن يؤدي الخادم عمله بترتيب، وإلا ساء ما يعمل. فإذا كنت كاتباً في ديوان، وعليك أن تخرج من منزلك في الساعة السابعة والنصف، حتى تدرك محل عملك من أول الوقت، آخر ذلك الخادم الذي لا يراعى الترتيب تنظيف الملابس، وألفيتك على الطريق تنظفها بمندليك ويدك. إنه ليعمل ما لا يحتاج إليه الآن، ويشغل عن إجابة دعائك. وإنه ليقدّم بعض الأعمال على أوقاتها، أو يؤجلها إلى حين عودتك، كترتيبك من الديوان، فيردك بابك المغلق، بعد تجربة فتحه، والتماس المفتاح من مظانه، ويصرفك إلى قهوة أو دار صاحب، تضيع فيها الوقت، على حاجتك إلى الوقت، حتى يعود ذلك الخادم. كما يقتضى أن يؤدي الطباخ عمله بترتيب، وإلا أذى ضيفك، وأخلف ترتيبك. فإذا كنت امرأً سريع الغضب، سريع الجوع، لم تلق من جوعك دون ما يلقي الناس منك. حتى البربري الذي عمله في الجلوس على كرسى عند الباب، إذا لم يوفق إلى النظام، لم ينج الناس من شره. فالمرأة التي يجب أن تنظر إلى ولدها أنا نظر طبيب، وأنا نظر مُرب، وإلى منزلها وحاشيتها، أنا نظر منظم صحيح الذوق، وأنا نظر مدبر عارف، لا تؤهلها معارف الأم الجاهلة لتأدية واجباتها. إنه من اللازم أن تجلس للدرس أمام المعلم.

وأما انتظام المدرسة، فيتناول انضباط أمورها العامة، كأوقات الذهاب إليها والخروج منها، والعمل والفراغ منه؛ ويتناول أخذ التلاميذ بالترتيب في قولهم وفعالهم، ودخولهم المكاتب وخروجهم منها، وأسئلتهم وإجاباتهم، وجميع أمورهم. ويتناول أيضاً ترتيب المعلمين لأقوالهم وأفعالهم، فإنهم القدى الصالحة للتلاميذ. ومما هو جدير بعناية المعلم ترتيب المسائل التي يقع

عليها الدرس، بأن يجعل كل طائفة منها في موضعه اللائق، ولا ينصرف عن قسم إلى آخر حتى يتم الأول؛ لا أن يكون فيها كالذى يراوح بين رجله، يقر على هذه وقتاً، ثم ينصرف عنها، ثم يعود إليها. إن ترتيب مادة الدرس من أهم ما على المدرس، ولولاه لم يكن لأكثر ما يُعلم التأثير النافع في صدور التلاميذ، بل لولاه لم يفقهوا كثيراً مما يقول، كما هو شأن بعض المدرسين في تدريسهم. إن الطالب ليسمع المادة الخالية، من الأمور الاصطلاحية، فلا يجد غير ما كان يختلج في نفسه، ويشتها بغاية السرعة، لولا عقبات يجدها في الطريق، من سوء الترتيب، ترتيب المدرس. إن الترتيب الصحيح عليه معول كبير. خذ بعض المعلمين تلاميذه الذين يعلمهم الإنشاء، بكتابة هذه الجملة، على غلاف كراستهم، أول شيء يخطونه فيها (عليك بترتيب الفكرة، وتسهيل العبارة) وكان يكلفهم أيضاً كتابتها على سبورات المكاتب، في حصص الإنشاء، بخط جيد واضح؛ ومن وقت إلى آخر، يطرق بها سمعهم ويطرف بها بصرهم. وكان بلتى بك، ناظر مدرسة المعلمين التوفيقية من قبل، إذا دخل فصلاً من فصول مدرسته، فوجد النظام سائداً، وقف قليلاً، وأحسن السلام على المعلم وانصرف. أما إذا دخل فوجد التلاميذ على غير نظام، وقطع الورق منثورة في المكتب، أثر سوء النظام من قبل أيضاً، وبخ التلاميذ، وطالبهم برفع الورق، وطلب الباب مُغضباً؛ وإن تكرر هذا من المدرس مرات، سعى في نقله من مدرسته. هذه قاعدة رأيت من بلتى بك شدة التمسك بها، مدة إقامتي معه بالمدرسة التوفيقية، من سنة ٩٤ إلى سنة ٩٧. وإن قاعدة بلتى بك هذه مستقيمة كل الاستقامة، فإن المعلم الذى فى روحه الانتظام، وإن قل علمه، أنفع للتلاميذ.

أُتدرون أيها الطلاب، لم كان تلاميذ المدارس الذين يتخرجون منها، قبل أن تُنشأ مدرستكم هذه، لا يعرفون من العربية غالباً إلا بعض الأسماء الاصطلاحية؟ إن كثيرين من معلمهم كانوا من مدرسى الأزهر، الذين هم، وإن بالغوا فى التدقيق، مثل ما تعلمون من الانفضاض عن النظام والزهد فيه. وإن أكثر ما ساعد إخوانكم على أداء عملهم، حتى كثر فى خريجي المدارس العارفون والكتابون، هو النظام. إن الانتظام أول الأوصاف التى تستطيع المدارس أن تهبها لتلاميذها ما دامت قائمة عليه، فإنه أمسها بها. فعليكم بالأخذ به فى جميع أموركم، والتأمل فى قضاياها، ولا يكن مبلغ نظركم إليه نظر العامة إلى صف من الجند، مرتب يسعى بين أيديهم.

وأما نظام الحرف، فيقتضى الترتيب فى جميع أمورها؛ فإن كنت من العلماء أو طلاب العلم الذين تكثر كتبهم، فعليكم بترتيب كتبك ترتيباً نافعاً. ومن الخطأ أن تقيم بعضها على بعض بغير ترتيب، أو تضعها فى صناديق كبيرة، حتى إذا عرضت لك حاجة إلى كتاب منها وقعت بين أمرين: فإما أن تلمس الكتاب فتلقى منها تعباً، وتُضيع زمناً، هذا إلى سرعة تلفها، وإما أن تعرض عنه، وتفوتك المسألة التى تطلبه من أجلها. وإن كنت مؤلفاً فعليكم ثم عليك باستقامة الوضع وحسن الترتيب فى مؤلفاتك، وإلا ساء السبيل إليها، كما ساء سبيل كب فيه الدهر بناءً لطول عهده. وازن بين كتابين، كأقرب الموارد والقاموس، تجد أن قليلاً من الدقيقة يكفى للعثور على كلمة فى الأول، أما الثانى فنرك أحياناً لا تعثر فيه على الكلمة إلا بعد نحو خمس دقائق؛ هذا بحسن الترتيب فى الأول وسوئه فى الثانى، فإن كنت ممن يشتغلون بالأمور اللغوية كثيراً، سلبك القاموس زمناً طويلاً. أما خلو الكتاب

من فهرس أو ترتيب يهـدى إلى السير فيه، كالكامل، فجاعله متصلاً بسبيل الاتفاق، منقطعاً عن سبيل الحاجة، إنما يقع نواله عفواً. وفي ظنى أن أوعر السبل إلى ما فى بطون الكتب، هى السبل إلى كتب الفقه، ففى كثير من الأحيان لا تلفى مذهباً لتحصيل المسألة، إنما هو جولان فى المظان قريبة أو بعيدة، من كتب ما أضخمها.

فى أكثر الكتب الأوروبية، يؤتى فى أول الكتاب بفهرس كما عندنا، يشتمل على الأبواب والفصول، ويبين بالأعداد مواقعها من الكتاب، ويؤتى فى آخره بفهرس كبير، كثيراً ما يكون كرسالة أو كتيب، تذكر فيه على ترتيب الحروف جميع مواد الكتاب، وأسماء الأشخاص الذين عرض ذكرهم لأمر، مع إتباع كل علم أو مادة بأعداد تدل على جميع مواقعها فى الكتاب.

نحن لا نلوم الفيروزابادى على القاموس، ولا المبرد على الكامل، بل نشكر لهما عملهما الجليل، ونلوم أنفسنا لأنهم وضعوا أساساً فلم نقم عليه بناء، بل شيدوا قصوراً فلم نمهد إليها السبل، والأشياء لا تدرك كما لها من أول نشأتها.

الزراع الذى لا يرفع الانتظام، ويدع أعماله حتى تتصرم أوقاتها، يستكثر من شراء الماشية، ويلتمس معونة الزراع، وتضطرب أموره، وتستبق إليه ألوان الخسران.

التاجر الذى لا يحصل على الانتظام، يعمل كثيراً، ويربح قليلاً. فالعطار بالمعنى الذى نعرف، إذا لم يراع الانتظام فى رص بضاعته، يشتغل طويلاً بالبحث عن المصطكى والقرنفل، حتى ينفذ عنه المشتري ويهرب إلى عطار آخر. ألا تبصر كيف يرتب أكثر البدلين بضاعته؟ بل ألا تبصر كيف

يحسن الصيدلانى ترتيب عقاقيره فى صيدلته، حتى إذا وقفت هناك أخذ عينك انتظام، إن يدك تكاد تقع عليه؟

وأما انتظام الأمة، ونعنى به ترتيب أمورها العامة ترتيباً صحيحاً معتمداً على العلم، فأس راحتها وفلاحها. فلولا انتظام فى جيشها، لرأيت خاشعاً متصدعاً لا يدفع عدواً ولا يلى حراسة. ألم تر أن الجمهور يسميه نظاماً بضم النون يعنى نظاماً بكسرهما، كما يقول كراماً يعنى كراماً وحُصاناً يعنى حصاناً؟ إنهم ليسمونه أيضاً لظاماً باللام أول الكلمة وهى نظام بالنون غيرت إلى اللام، لأن صوتيهما متقاربان. وكذلك يحصل التصحيف فى جميع اللغات بين الأصوات المتقاربة كالتاء والذال، والسين والزاي والصاد، وكالباء والفاء والثاء. ألا ترى لفظ (صراط) فى العربية فإنه يستقيم نطقه بالسين والزاي كما يستقيم نطقه بالصاد. قال فى القاموس: الرهدل (يعنى باللام آخر الكلمة) كجعفر: الضعيف، والأحمق، وكجعفر وقُنْفُذ وزبرج، طائر، لغات فى الرهدن (يعنى بالنون بدل اللام).

ولولا انتظام فى ربيها لما أخصبت أراضيها وجادت بالثمرات. نظر إلى الأراضي المصرية، لما لقيت نظاماً صحيحاً كيف أخصبت! ولولا انتظام بريدها وطرقها الحديدية، لساءت الصلات، واضطربت الأحوال، وبطلت الأعمال. ولولا انتظام مدنها لبلغ من السكان الجهد، ونال منهم العنت. والحاصل أنه لولا انتظام فى إدارة الأمة، أساسه إصابة النظر، وبسطة العلم، لم تكن الأمة شيئاً.

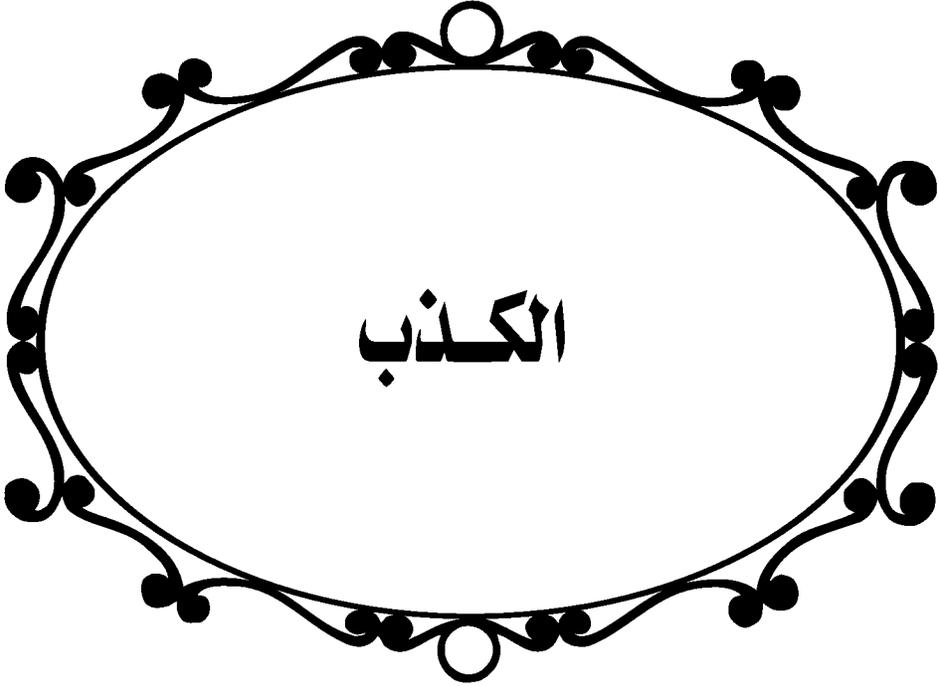
إن فى النظام قيام هذا الكون وبقائه، ولو زابت هذه الكواكب مواضعها، أو انحرفت عن أفلاكها، لكان الله قد تأذن بانتهاء العالم.

وبقى أن نقول إجمالاً: إن الراحة والاقتصاد، والإبقاء على الزمن، والخروج من الكسل، وفعل الواجب، كل هذه أمور مرتبطة بالنظام، كما ارتبط به فلاح الأسرة والأمة. ولكنه لما كان النظام أعلق بالأعمال، انفرجت مسافة الخلف بيننا وبينه. فنحن وإن بسطنا ألسنتنا بالقول، نقبض أيدينا عن العمل، ونحن وإن قلنا كثيراً، نعمل قليلاً.

وفى كل شيء لنا آية تدل على بعدنا من النظام

إن الجمهور الذى لا يوفقه عند النظام فى حفلاته ومواقبه غير عبث رجال الشرطة به، لا يرمى النظام.

\*\*\*



## الكذب

بيننا فيما سبق، أن الصدق دين للناس بعضهم على بعض، مع التنبية إلى وجه ذلك؛ فضده، وهو الكذب، التواء عن هذا الواجب، وسقوط في رذيلة من أكبر الرذائل كما سيبين.

الخرافات والأباطيل التي وجدت في الأمم، لى عكس قسطها من العرفان، أبطلت في نفوس أفرادها شيئاً من الاستعداد، وازدرعت فيها بعض الرذائل. فالذى نشأ في أمة صورّ خيالها العفاريث في صور منكرة مفرعة، ونحلّها كثيراً من الألقاب والأسماء والمستهجنة في أقاصيص مفعمة بالشرور التي استطالت بها على الناس، وكذلك صور الغيلان فى نحو هذه الصور، وأضاف إليها الأسنان الحادة، والأنياب البارزة القواطع، والأظافر الطويلة، والشعور الكثيفة، في حكايات تمثل من أنواع التعدى على الناس والفتك بهم والصبيان منهم خصوصاً، ما تمثل - الذى نشأ في أمة كهذه، خليق بأن يبدل من بعد أمنه خوفاً، ويزول منه سلامة فطرته، ويستولى عليه الضعف، والضعف رذيلة يجد المرء عذابها فى كل حال من أحوال الحياة؛ وعلى هذا القياس. إن كان بعض المخترعين لهذه الأباطيل ممن ضعفت مفكرتهم وقوى خيالهم لأمر، كما يحدث عند بعض المرضى، فالبعض الآخر بلا شك من الذين يفترون الكذب. إن تخلص جماعة من الذين نشئوا يسمعون هذه الأباطيل، من تصديقها، بضوء يصل إلى قلوبهم من العرفان فيما بعد، فنحن على بينة بأن سائرهم يبقى له مرض فى نفسه حتى يموت. على أننا لا ننجزم بأن من زالت عن نفسه هذه الظلمات، استرجعت نفسه تمام الاستعداد الأول، بل أولى لنا أن ننجزم بعدم رجوعه.

إن الكذب دخل في الديانات، وأبرزها للناس في صور ناقصة. فالدين الإسلامي خالطه كثير من الأحاديث الموضوعية، والظنون الفاسدة، التي اشتغلت العلماء في كثير من الأزمان بتمييزها، وتلقفها الكثير على أنها من الدين. ونتج من تلك الظنون، وهذه الأحاديث، فساد كبير؛ لأنها شوهت وجه الرشاد، وجعلت الحقيقة بمكان قصي، وصدت كثيراً عن قبول الحق، بعد أن اختلط بالباطل، وجرت العادة إلى فعل ما لا يحل، تعويلاً على حديث ضعيف، يقضى بكذا وكذا من أنواع الرضوان والمغفرة، جزاء على عمل حقير لا قيمة له. وفي مثل نزهة المجالس كثير من هذه.

كذلك علم التاريخ، دخله كثير من الأكاذيب، واشتغلت العلماء بالرد عليها كابن خلدون في مقدمته، والتاريخ على هذا الوجه مفسد للأنظار، ومبعد للشخص عن الحق؛ والذين تراهم قد جمعوا في معارفهم بين الحق والباطل، وقرنوا الغث بالسمين، أولى الناس بتصديق ما يلقي عليهم، وأبعدهم من التماس الحقيقة. وهكذا في سائر العلوم الثقيلة، ترى للباطل مجالاً واسعاً، تفرغ كثير من العلماء لدحضه وتفنيده، وبعضهم بذل الجهد في البحث عما هو بالحق أشبه، ودونّه في كتب مخصوصة كالبخارى وغيره. ولم يكن لهؤلاء من الأعمال إلا تخليص العالم من بعض شرور تلك الرذيلة، وتقليل ما ينصب من المصائب منها على رءوس الناس.

الكذب رذيلة استطالت على المعاملات والنظام، وحرّف العالم الدائمة، حتى كادت تفسدها، وتصدم الكون في رأسه صدمة يتقهقر بها إلى الوراء. فالعالم والتاجر، والزارع، والصانع، كل أولئك أضربهم الكذب في عملهم، وضيق عليهم السبل حتى أقفلت في وجوه البعض؛ وتوجيهه لا يخفى على قياس ما قيل في الصدق.

وقد ذكرنا لك، أن كذب التاجر قضى بأن تنفق زمناً في شراء عَرَضٍ حقير. ونزידك، أن الناس الذين لا عمل لهم إلا قضاء الأشغال، من بيع وشراء، وإجارة ونحوها من المعاملات التي أفسدها الكذب، ربما أضعوا أكثر من ثلاثة أرباع عمرهم في الاقتراب من الحق، فيما يباشرون، وما هم بمقتربين منه. إذا نظرنا إلى الخصومات التي تقع بين الناس، ووراء الخصومات ما وراءها من الدعاوة والبغضاء وما يتبعهما من المفاصد - رأينا كثيراً منها قد أوقع فيه الكذب. فكم من رجل ينازع في عين يدعيها لنفسه، وهو يعلم أنها ليست له، وآخر كان قد استأجر منزلاً واعد بإخلائه في يوم كذا، ولم يف بوعده، فقامت بين الاثنين خصومة ساقهما إليها الكذب.

الكذب أدى إلى ذهاب ثقة الناس بعضهم ببعض، فصارت رابطتهم واهنة، وتعسر على ذي الحاجة أن يقترض مثلاً ما يدفع به تلك الحاجة، خصوصاً إذا كان معروفاً به، فإن الثقة به تذهب، وتضيق عليه المعاملات، حتى لا يجد مسلماً. وأنت ترى من نفسك سهولة الإعطاء لمن يعد ويفى بخلاف الكاذب. قد يكذب الرجل حتى لا يُصدَّق، وإن صدق ربما وقع من أجل ذلك في مهلكة، والشواهد كثيرة.

وينبغي أن يتعهد الأحداث، وتُستأصل من نفوسهم هذه الرذيلة، بما يناسب حالتهم من العقوبة اللائقة:

- (١) فإذا كان الكذب واقعاً من الصبي لكثرة كلامه، ألزم الصمت.
- (٢) وإذا كان عن خوف، نشأ عن القسوة في معاملته، عومل بالرفق حتى يثوب إليه ما فقد من القسوة.

(٣) وإن كان كذبه صادراً من الفخر، عود التواضع.

(٤) ومن نشأ كذبه من طمع فيه، وطلب به الحصول على شيء، حيل بينه وبين ما يشتهى .

(٥) ومتى بان لك أن سيئ النية يريد أن يضر غيره، عوقب علناً بما كان يعاقب به ذلك الغير على فرض صحة دعواه، مع إعلان شرف المكذوب عليه .

ويجب مع هذا أن يكون المعلم قدوة حسنة :

(٦) فلا يكذب فى شيء ما .

(٧) وأن يطابق قوله عمله .

(٨) وألا يتضارب قوله .

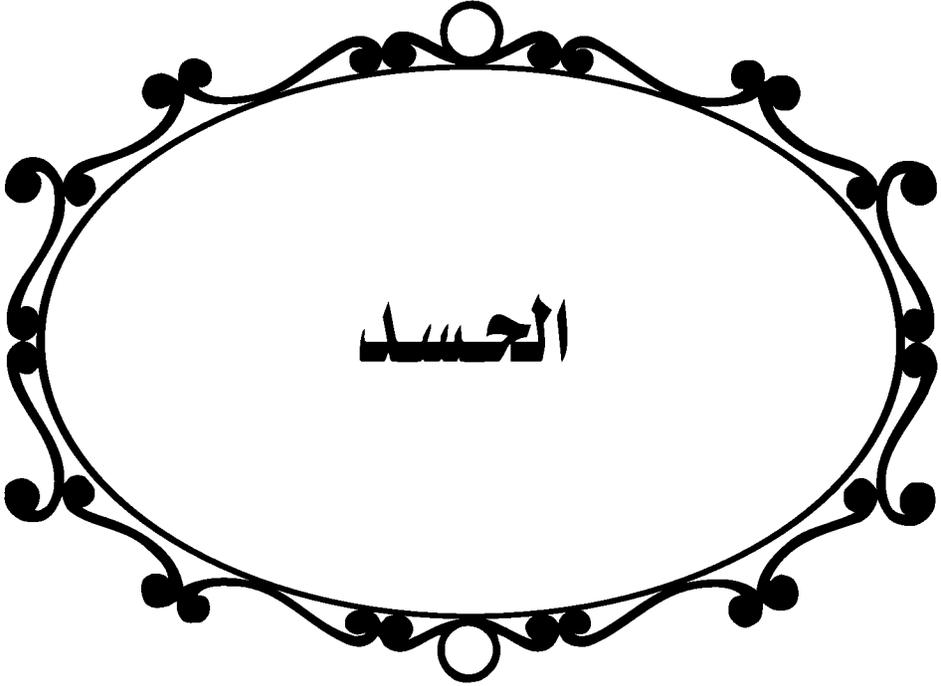
(٩) وأن يجعل فى مادة الدرس ما ينفر من الكذب .

(١٠) وأن يبين فى كل فرصة أن الكذب له منه وقع سيئ .

(١١) ويبين لهم أيضاً ثقته بهم فى أعمالهم، ولا يظهر شكه إلا عند اتهام شديد على وجه لطيف، وإلا أثر فيهم السؤال على غير هذا الوجه أثراً سيئاً .

(١٢) وينبغى أن يسامح من يجيب بصراحة، بخلاف الكاذب فيعاقبه .

\*\*\*



## الحسد

ثلاثة ألقاظ من قبيل الحسد، يكثر دورانها، ويشتهب فيها بعض الناس، لورود بعضها مستعملاً مكان الآخر، لغرض يليق بذلك الاستعمال. وهى: المنافسة، والغبطة، والحسد.

**فالمنافسة:** تمنى ما للغير مع السعى فى التحصيل. وهى سبب قوى من أسباب تقدم الأشخاص والأمم. ولهذا حسن أن يحرك إلى التسابق فى طلب الخيرات بالوسائل المختلفة، فهى من أجل ذلك ممدوحة. قال تعالى: «وفى ذلك فليتنافس المتنافسون».

**والغبطة:** تمنى ما للغير، وهى ممدوحة أيضاً، لأنها قد تنتهى بالمنافسة.

**والحسد:** كراهة نعمة الغير وحب زوالها. وهو ضرب من البخل شديد، لأن بخيل المال يضمن بما فى يده؛ وأما الحسود فإنه يضمن بنعم الله تعالى، ويألم من وصولها إلى الغير. وهو مع هذا سخط على نظامه تعالى من حيث تفريقه النعم فى خلقه. قال ﷺ: «إن لنعم الله أعداء. فقليل: ومن هم؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما أتاهم من فضله. ومن ثم كان الذين اختصهم الله بحظ وافر، ونبغوا فى أممهم، غرضاً لحسد الحاسدين، واتقاد نيرانه فى قلوبهم، فتعرضهم لهم بالمثاب خفضاً لدرجتهم، وخطاً من كرامتهم، يصيبونهم فيما يعز على أممهم؛ فإن كانت الأمة مكلفة بأمر الدين سلبوهم فيها، وإن كانت مولعة بغير ذلك، عابوهم فيه. مع أن تلك المثالب يكون من شأنها تنبيه كثير إلى فضائلهم، كما قيل:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُويت، أتاح لها لسان حسود

ولا تكون أمة راضية كل الرضاء عمن نبغ فيها، إلا بعد انقراض الحاسدين، بانقراض جيلهم، وقيام جيل آخر مقامه .

أما دواعى الحسد فكثيرة، منها: البغض، فإن الشخص متى أبغض آخر لسبب ما كان من شأنه أن يجد فى نفسه انقباضاً من نعمة تصير إليه . وهذا النوع قد يزول بسهولة، لأنه من توابع البغض، ثبوتاً وزوالاً، ولا يكون عاماً. ومنها: التزاحم على غرض واحد، كالذى يكون بين طائفة النجارين أو الحدادين مثلاً، فهؤلاء كما تكثر فيهم المنافسة، يكثر بينهم الحسد أيضاً، لأنهم يرتزقون من طريق واحد، وما يحصل لأحدهم من الكسب يخسره الآخر معنى .

أما الحداد والنجار، يعنى اثنين من طائفتين، فليس بينهما تزاحم بهذا المعنى، ولذلك لا يتحاسدون. وهذا الأمر بعينه، يصلح علة فى أن سكان القرى يكثر فيهم الحسد، عن سكان المدن، لأن الأولين لهم عمل واحد وهو الزراعة، فهم فى حرفة واحدة، يوندر بينهم الصناع. وهم مع ذلك، فى قريتهم الضيقة، بما لهم من الروابط الكثيرة، بمنزلة أسرة تقيم فى بيت، بخلاف سكن المدينة، فإن بينهم الصنائع المتوعة، والأعمال المختلفة، مع قلة العلائق فيما بينهم، واتساع مدينتهم .

ومنها: أن تكون النفس شحيحة بالفضائل، بخيلة بالنعم، لا يطيب الشخص نفساً بما رأى فيه غيره من النعمة، وإن كان هو فى نعمة فوقها، يسخط على قضاء الحكيم عز وجل. وهذا النوع شر الأنواع، لأنه خبث فى النفس، وانطواء على الشر لذوى النعم، بلا سبب .

وقد قلنا فى الشفقة إنها عامل من عوامل الألفة والاجتماع، وهنا نقول: الحسد بخلاف ذلك، إنه سبب من أسباب النفور والتفرق.

الحسد إن تمكن من قلب امرئ أفسد عليه أخلاقه ويسر له أوصافاً قبيحة، كالكذب والغيبة والنميمة.

الحسد إن ثبت فى نفس امرئ ساقه إلى فعل ما لا يحل من القبائح والجرائم؛ فهو الذى حمل إخوة يوسف على أن يأتروا به، ويتشاوروا فى قتله، كما جاء فى التنزيل. وهو الذى أغرى قاييل، على قتل أخيه؛ ودمه، كما روى، أول دم سَفَكَ عَلَى الْأَرْضِ. قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَنْ بَسَطَ إِلَى يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ [سورة المائدة].

وهو الذى دفع المشركين إلى الاستطالة على رسول الله ﷺ بالأذى، ووقوفهم فى طريق الإرشاد.

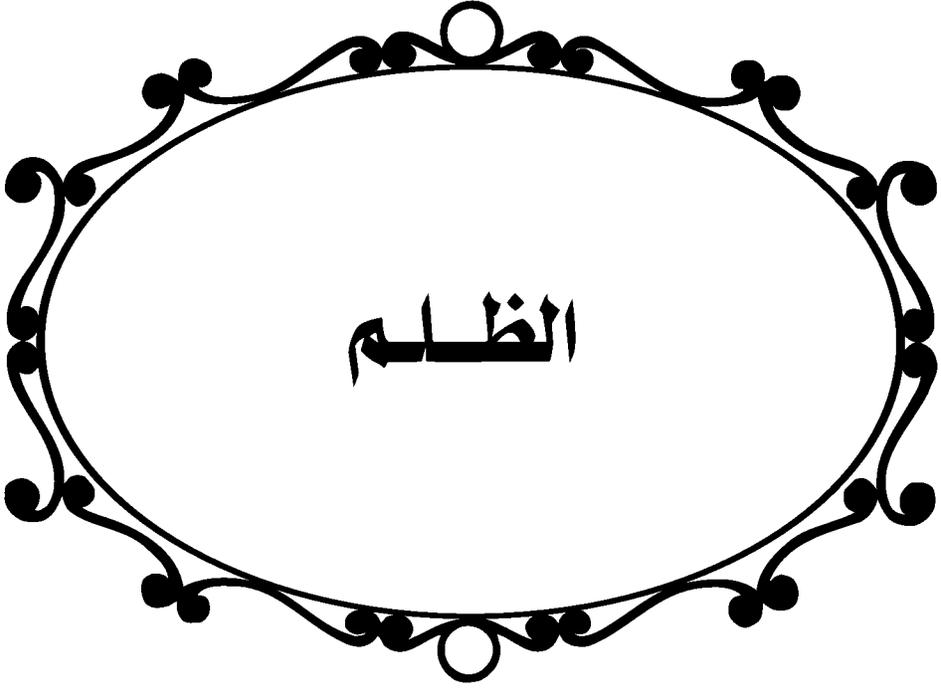
وكذلك فرق بين كثير من الأسر، وأوقع فيها الشقاق، ووهن الأسر وهن الأمة. يخص الأب، مثلاً، أحد الأخوة بجزء من مقتنياته ويترك الآخرين، فينبت الحسد فى قلوبهم، وتكثر الشرور فيما بينهم. فإن الحسد متى دب فى جمعية كيفما كانت، أفسد قلوبها، وأذهب ثمرتها، وصير بعضها وبالاً على بعض، وحوادثه قلما يخلو منها كتاب أو رواية.

والحسود شرير شره راجع إليه، وعذابه دائم، وألمه مقيم، بما يجد فيه

الغير من النعمة . ولذلك قيل «عقوبة الحاسد من نفسه» . وقال بعض الحكماء : «الحسد جرح لا يبرأ وحسب الحاسد ما يلقي» .

وعلى المرءى ألا يدع طريقاً للعداوة بين تلاميذه، كالممارسة، وأن يعمل لجعلهم إخواناً متحابين، حتى لا يتطرق إليهم الحسد، ولا يخص أحدهم بمثل التوجه إليه فوق الحاجة، لأن ذلك قد يفسد قلوب إخوانه .

\*\*\*



## الظلم

عرف الكثير الظلم بأنه وضع الشيء في غير موضعه، وهو تعريف خفى، والأحسن أن يعرف بأنه: خروج الشخص في صرفه عما حد له. في الناس من طبعه العدوان، ومنهم من دأبه الجشع، وآخرون عادتهم الغضب، وغير ذلك من الرذائل التي جاءت من عدم اعتدال القوة المودعة فيهم. فلا جرم كانت هذه الرذائل مع تراحمهم على المطالب سبباً في مجاوزتهم الحد، واستطالة بعضهم على بعض، بالثتم والضرب، والسلب والنصب، والقتل وغير ذلك من الأمور التي يأبأها العقل والقانون.

وأول من يصيب الظالم بظلمه، نفسه التي بين جنبيه، فإن الشرور التي تخالج قلبه، وتخامر نفسه، تضره قبل أن تصير شروراً بالفعل، تصل إلى الغير، ويجد ألمها. على أن بعض الظلم يكون قاصراً على الظالم، لا يصل إلى غيره منه ضرر. والظلم أمر قبيح، سىء العاقبة، كما ستسمعه، وأنواعه كثيرة.

فمنها ظلم الحاكم للأمة، وأدناه ألا يقلع عما فيه من الرذائل، فإن كل رذيلة فيه هي عند النظر، ضرب من الظلم لرعيته، لأن تلك الرذيلة تنتقل إلى كثير منهم. فالحاكم إذا أحب التجسس أخذه من حوله بحكم التقليد، ولكل من هؤلاء حاشية وناس محذقون به، فتنتقل تلك الرذيلة إليهم، وهكذا. كنت أعرف في بعض الرؤساء رذائل، ولم ألبث حتى رأيت بعض مرءوسيههم وقد ظهرت فيهم هذه الرذائل بعينها، وكأني الآن أنظر إليهم.

ومنه أن يقعد عن إدارة شئون الأمة، ويجعل مصالحها وراء ظهره، لا

يحفل بها، ولا يُعنى إلا بتقاضى أجره، وحمل الرعية على الاعتراف له بالسيادة، وإبداء شعائر لعبودية، ويكون عبئاً ثقيلاً على كاهلها.

ومنه، وهو أشد، أن يستبد برأيه، ويقضى بهواه. وقد يمد عينيه مع ذلك إلى أموال الرعية، وحينئذ تذهب حرمة النفس والمال، ويتضعع الأمن، ويخشى الناس على أموالهم من إظهارها فى التجارة ونحوها، وتنقبض الأيدي عن الأعمال، فتقل الثروة، وتضيق دائرة العرفان. لأن الأمة تكون حينئذ فى تقهقر، والحكومة الظالمة لا تنصر العلم، لأنه يناقض حالها الذى هى فيه. وكذلك الشأن فى أخلاقها، فإنها تصير إلى الضعف والذلة، وينتشر فيها النفاق والكذب، وتبطل فيها الشجاعة والحمية، وتظهر فيها جميع الرذائل التى تتولد من الضعف، وإذا سلمت من الدمار زمناً، فإنها تبقى كالمريض فى حال النزاع، ثم تضعف عن القيام بنفسها، وتصير إلى غيرها.

وهذه مراكش، لظلم حكومتها ينطبق أمرها على ما قلنا، وهى قريبة من السقوط.

الظلم فى الأمم يثير الضغائن، ويزرع الأحقاد، فى نفوس الرعية، على الحكومة حتى تكون الأمة فى نزوع إلى الثورة، وليس يدرى ما وراء الثورات من سقوط الحكومات، وانقلاب الممالك، إلا الله تعالى. فالحروب الداخلية، أشد وقعاً من الحروب الخارجية. وهذه أمة الروس، لما لقيت من حكومتها من الاستبداد والمصادرة فى الحرية، أوغر ذلك صدورها، وتحفزت إلى الثورة. ولما آنتت من حكومتها الضعف، ثارت إلى الفتن والفتك بالناس وتعطيل الأعمال، وتلك من ثمرات الظلم.

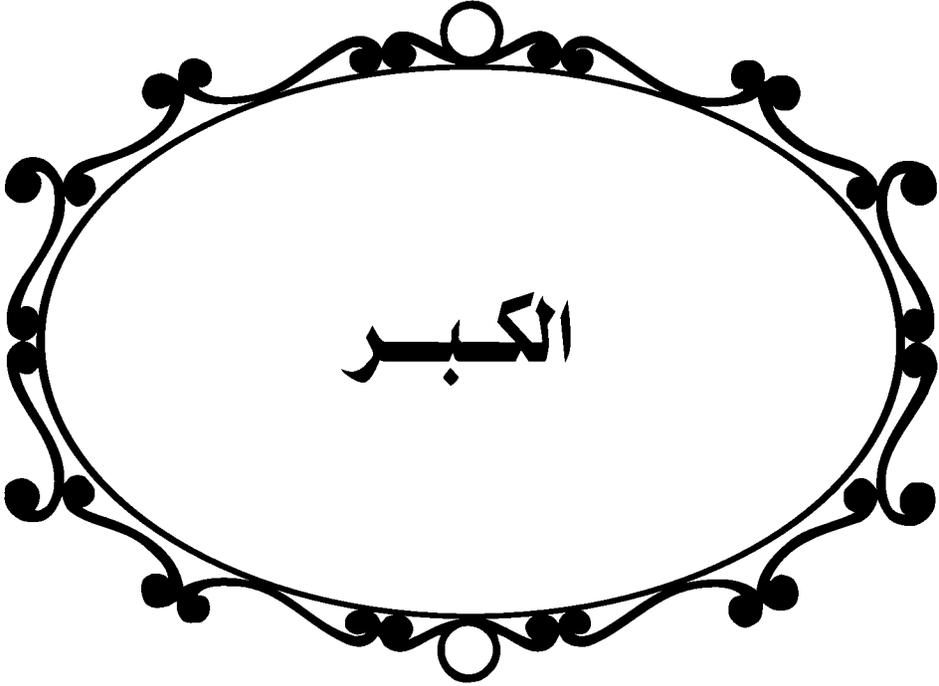
ومنها الظلم الذى يقع فى الأسر من عمداً، والأسر أجزاء تتركب

منها الأمة فإذا وقع فيها خلل أدى ذلك إلى فساد الأمة من وجه. ونذكر لك شيئاً تقيس عليه: فمن ذلك أن يسىء الرجل إلى زوجته، وهو كثير، ينظر إليها نظره إلى متاعه، ويعاملها بما يقتضى ذلك، فإن هذا يؤدي إلى ذلها وهوانها، وتولد الرذائل فى نفسها، وهى أم ولده، فلا بد أن تبعث فى نفسه من تلك الضعفة التى صارت إليها، ويكون عدوانه على زوجته عدواناً أيضاً على أولاده وأمته. إن الذين يتكبرون فى أجواف بيوتهم على أهلهم، ويشمخون بأنوفهم على أسرهم، إنما يلدون عبيداً لغيرهم من الناس. ومن الظلم أن يدع تربية أبنائه، تربية يقتضيها الزمان؛ فإن التزاحم على أمور الحياة قد اشتد، وحاجة الإنسان قد تضاعفت، وطبيعة العمران قد تغيرت. فمن لا يجعل لبنيه عدة من تعليمهم وتربيتهم فقد ظلمهم، وكان كما لو دفعهم إلى الوغى بغير سلاح. وكثير من الأسر أدرك الحاجة إلى تربية البنين، ولكنهم لم يدركوها بعد إلى تربية البنات، وهن كذلك فى حاجة إليها؛ فإن تدبير المنزل والسعادة من داخله، وتربية الأولاد، واقتدارهن على العمل والكسب عند الحاجة، كل ذلك داع إلى العناية بتعليمهن وتربيتهن. غالى الرجال فى ظلم بناتهم، حتى جعلوا درجاتهن وراء ما يملكون من الحيوان، وهم لا يشعرون، تُولد عند الرجل المهرة أو الجحشة، فمتى أدركت سن الروض دفعها إلى الرائص، وإن قصر ندم؛ وتولد له البنت، فإذا جاء عليها دور التربية أو جاوزته لم يدر فى خلده شىء من أمر تربيتها. فما أظلم الإنسان وأبعده عن الحق، إذا اعتاد الباطل؟! ومن الظلم ما أسلفنا القول عليه، من أن الرجل يضم إلي بنيه الكبار على الوجه الذى فى القرى، ولا يكل إلى كل منهم عملاً خاصاً يحضه على الكسب ويعرفه طرق المعاملات، ويبعث فيه روح الاستقلال. فإذا مات عجزوا عن تدبير أمورهم، ووقعوا فى الخسران.

ومنها ظلم الحيوان، مع كونه نعمة من الله تعالى على الإنسان، قال تعالى: «والأنعام خلقها، لكم فيها دفء ومنافع، ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس؛ إن ربكم لرءوس رحيم». فلا يحل مقابلة هذه النعم بالكفران، ولا هذه الرحمة باظلم والقسوة، وإسخاطه تعالى فيما أفاض من المنة. نعم أحلت الشريعة ذبح الحيوان وأكله، فمجازاة ذلك إلى تعذيبه بلا جدوى، أمر مخالف للشرع والعقل معاً. فهراش الديوك تتقاتل حتى تسيل دماؤها، والكباش تتناطح وتذوق الألم وقد تتكسر قرونها، وتحميل الحيوانات فوق طاقتها حتى يبلغ منها الجهد غايته، وضربها مع ذلك بالسياط، كل ذلك ظلم. وظن أمثال هؤلاء الذين يصنعون بالحيوان مثل ذلك، يعاملون الإنسان بمثل هذه المعاملة، لو وجدوا إليها سبيلاً. جاوز الناس الحد في أمور الصيد، والعدوان على الحيوان، وإن لم يطعموا منه. ومن هؤلاء جماعة من الأغنياء، جعلوا لهم قطعاً من الأرض يأوى إليها، فإذا مالوا للهو بقتله، ركبوا ومعهم آلاته من كل نوع؛ حتى إذا جاءوا إليه وجدوا لهم في الفتك به لهواً ولذة.

ويجب على الأستاذ أن يربي تلاميذه على احترام الشرع والقانون، والتمسك بهما وينفرهم من مخالفتها، والخروج عنهما، حتى يكون ذلك داعياً إلى بعدهم من الظلم.

\*\*\*



## الكبر

حال فى النفس، يدعو إلى مجاوزة الحد فى إعظام النفس وإحقار الغير. والتكبر اسم يقع على العلامات المختلفة التى تنبئ عن تلك الحال، على قياس ما سبق فى السخاء والجود. وتلك العلامات مما لا يغيب عن الناظر، إلا أننى أُلْم على شىء منها. فمنها النظر الشزر، وتقليل الكلام. قال شاعر الحماسة:

وما تزدهينا الكبرياء عليهم إذا كلمونا أن نكلمهم نزرًا

ومثلهما الترفع عن الحق استخفافًا بمن جاء به، وهو رذيلة كبيرة من رذائل الكبر؛ حتى لقد عرفه بعضهم، بأنه رد الحق على قائله واحتقار الناس. كذلك عدم رد السلام، والتوقف عنه حتى يبدأ به الآخر، ونحوهما.

أما هذا الخلق فيحصل فى الشخص لنظره إلى نفسه بالإضافة إلى فضيلة فيه، وإلى غيره من جهة أنه عار من تلك الفضيلة أو فيه رذيلة. ويضرب صفيحًا عن نقائصه وكمالات غيره، فتعظم عليه نفسه، ويهون عليه الآخر، وتأخذ هزة من الكبر. وقد ينحل الكبر فيرى أنه سرى فى الشخص من أنه يرى حاله التى هو فيها جماع الفضائل، وأن ما عداها ليس بشىء، فيجاوز الحد فى تعظيم نفسه وتحقير غيره. كما قد يقع من بعض الذين يعرفون شيئًا من مسائل العلوم، فإنهم يحقرون عامة الناس، وإن أوتوا من غرائزهم وأدبهم الفطرى، ما يجعل لهم المحل الأرفع. وهذا راجع إلى ضيق دائرة النظر؛ ومثل هذا النوع سريع الزوال، متى استتعت دائرة العرفان وأدرك الشخص حقيقة الفضيلة.

أما أسباب التكبر فمنها: علم لا تقصد به الفضيلة، كما هو واقع، فإنه متى صادف نفساً متهيئة للكبر بعثه فيها، وكان مثله كمثل الغيث ينزل صافياً من السماء، فتتشربه الأشجار المرة فتزداد به مرارة. ذلك بأن يظن صاحبه أن ما حصله هو من العلم المعنى بالتقريظ، وهذا الظن خطأ.

ومنها: النسب، ويحصل به الكبر غالباً ممن لا يشعرون لأنفسهم بشيء من الفضائل؛ وهو أدل على جهلهم، لأن النسب إنما صح اعتباره فضيلة، لأن الفرع يضير غالباً إلى ما كان لأصله من المحامد، ويحملة النسب على المطالب الرفيعة. فإذا لم يكن ثم واحد من هذين، بطل معناه. نعم يصير له معنى آخر، هو الاحتجاج به على الفرع، فلومه، كما قيل:

**لئن فخرت بأباء ذوى نسب لقد صدقت، ولكن بئس ما ولدوا!**

ومنها: المال، وما يستدعى من بسط الرزق ورغد العيش، والانغماس فى الترف ونحوها؛ وهى أمور ليست من الفضائل فى شىء. والمال فى ذاته ليس فضيلة، وربما لا يدل على فضل سابق، كالجدة، كما إذا كان موروثاً، ولا لاحق، كالسخاء، كما إذا كان الثرى بخيلاً. ويا ليت شعرى، إذا كان العلم، والنسب، والثراء، فضائل على الإطلاق، فهل من مقتضى الفضيلة أن يجاوز صاحبها الحد فى إعظام نفسه، وإحقار غيره؟ نعم إذا اقترنت برذيلة الجهل!

ومنها: القوة والجاه وغيرهما.

أما تأثير الكبر فى النفس، فاستتباعه كثيراً من الرذائل، فضلاً عن كونه يقضى بانسلاخ صاحبه من التواضع الذى هو من كبريات الفضائل. فمن هذا أنه يغرى بالظلم، لأن المتكبر لا يحفل بحقوق غيره فيجور عليه؛ والحق،

لأنه ربما لا يجد من بعض الناس تسليماً بحاله، ولا يد له عليهم، فيدب في نفسه؛ والحسد، لأنه من فروعه كما سبق؛ والغضب، لأنه يرى كثيراً من أعمال غيره دون المنزلة التي حسبها لنفسه، وذلك داع إلى أن يغضب؛ والإضرار بالناس، والغيبة؛ ويصده عن الطاعة احتقاراً لمن تجب له، وقبول النصيحة، ومعرفة الحق، والانقياد له، والرجوع إليه، كما يجيء. وإذا أعملت فكرك عثرت على ردائل وراء هذه تتبع الكبر.

وأما تأثيره في الخارج، فإنني مورد لك بعض شواهد، نموذجاً تقيس عليه. فهو الذي حمل إبليس على المعصية فطرد من رحمة الله، وحق به سوء العذاب، كما ذكر في مواضع من التزليل العزيز، منها قوله تعالى في صورة «ص»:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرَجْ مِنْهَا فإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ .

الكبر هو الذي حمل جبلة بن الأيهم ومن معه، على الارتداد، ومفارقة جماعة المسلمين، واختيار النار. فقد كانت جبلة يطوف بالبيت، إذ وطىء إزاره رجل من بنى فزارة، فانحل، فرفع جبلة يده فهشم أنف الفزارى. فاستعدى عليه عمر رضوان الله عليه. فبعث إلى جبلة، فأتاه! فقال: ما هذا؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين! إنه تعمد حل إزارى، ولولا حرمة الكعبة لضربت بين عينيه بالسيف. فقال له عمر: قد أقررت! فيما أن رضى الرجل، وإما أن

أقيده منك . فلما رأى جبلة الصدق من عمر، قال : أنا ناظر فى هذا، ليلتى هذه . حتى إذا نام الناس وهدءوا، فحمل جبلة بخيله ورواحله إلى الشام، وارتحل فى خمسمائة رجل من قومه، فدخل إلى هرقل، فتنصر هو وقومه . وهو الذى يقول بعد ذلك، وقد سقط فى يده :

تنصرف الأشراف من عار لطمة      وما كان فيها، لو صبرت لها، ضرر!  
تكنفى فيها لجاج ونخوة      وبعث لها العين الصحيحة بالعمور  
فيا ليت أمى لم تلدنى ! وليتنى      رجعت إلى القول الذى قال لى عمر!  
ويا ليتنى أرعى المخاض بدمنة      وكنت أسيراً فى ربيعة أو مضر!  
ويا ليت بالشام أدنى معيشة      أجالس قومى ذاهب السمع والبصر!

والقصة مبسوطه فى أول الجزء الرابع عشر من كتاب الأغانى .

الكبر يصد عن فهم الحق، استخفافاً بقائله، وانصرافاً عنه . قال تعالى :  
«سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق» . وقال تعالى :  
«كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار» فلا ينفذ فيه الحق، ولا يعمل فيه  
الرشاد . ولذلك كان أتباع الرسل، وخصوصاً فى أول أمرهم، الضعفاء من  
الناس، لأن أقوىاءهم وعظماءهم، لا يخلون غالباً من كبر، يحول بينهم وبين  
الحق . يؤيد ذلك ما جاء فى حديث لهرقل مع أبى سفيان إذ يقول له :  
وسألتك : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه،  
وهم أتباع الرسل .

قال القسطلانى فى شرح هذا: غالباً، لأنهم أهل الاستكانة، بخلاف  
أهل الاستكبار، المصرين على الشقاق، بغياً وحسداً، كأبى جهل . ويؤيد

استشهاده على ذلك قوله تعالى: «قالوا: أنؤمن لك، واتبعك الأردلون؟»  
المفسر بأنهم الضعفاء على الصحيح اهـ، والحديث جدير بالنظر وهو مفصل  
فى الجزء الأول من القسطلانى من ص ٧٣ وما يليها.

قد يوجد عدد وافر من الأمة يحملهم جهلهم على الكبر، ويصد فريقاً  
منهم عن مباشرة التجارة، وآخر عن الصناعة، وغيرهما من الأعمال التى هى  
منابع الثروة للأمم، فيضربون عنها، ويقع كثير منهم فى الذل خوف الذل.

الكبر قعد بكثيرين من ذوى النسب عما تهياً لهم من الأعمال حتى  
صاروا حملاً على غيرهم. فالأشراف مثلاً أخذتهم العزة بنسبهم الرفيع، حتى  
وقفوا عن مشاركة الناس فيما بين أيديهم من الأعمال، وصاروا إلى العجز،  
وانقسموا طوائف: فمنهم فريق يجول فى البلاد على أنهم مشايخ طرق،  
وآخرون أقاموا فى ديارهم، ينتظرون ما يأتيهم به الناس من الصدقات، ولسن  
حالمهم يقول: تصدق على سيدك الذى تحل له الصدقة، وهكذا من الطبقات  
التى لا ثمرة لوجودها فى الجمعيات والأمم، سوى تكثير سوادها. فى ظنى  
أن كثيراً من الحروب التى دارت رحاها صدر الإسلام فى سبيل المطالبة  
بالملك، كان من جملة الدواعى إليها تعاظم بعض الأشراف بنسبهم. وهذه  
حرب الروس، وما حرب الروس منكم ببعيدة، إنما أوقدوا نارها مع اليابان،  
عظمة منهم، وكبراً واحتقاراً لليابانيين، كما هو بين فى عباراتهم، كقول  
قيصرهم: لنؤدبن اليابان مائة مرة. وناهيك بما تجر الحروب من قتل الرجال،  
وذهاب المال، وقلة الأعمال، وصيرورة كثير من الأسر إلى الدمار لفقد  
عائلتهم، ووراء ذلك من السقوط للأمة ما وراءه.

كبر الرؤساء يقتل كثيراً من الفضائل فى نفس المرءوسين. فالرجل إذا

تكبر على زوجه وأولاده، ولم تكن رابطة الأسرة المحبة والإخلاص، فاعتبر الزوجة قطعة من الأثاث، والأولاد خلقة له، ووضع نفسه فى جميع الأحوال موضع الأمر لا يرد أمره، والناهى لا يلفظ فى نهيه، وترفع عن مجالستهم ومحادثتهم، أمات فيهم كثيراً من الفضائل على نحو ما مر فى الظلم، فإن المتكبر ظالم.

كذلك المعلم المتكبر، يصير تلميذه إلى الذل؛ على أن طريقته فى التعليم لا تكون مرضية، لأنه قد يحمله الكبر على أن يضع نفسه موضع العالم بكل شىء فيخلط ويخرج إلى الهذيان، ويحقر كل رأى للطالب، وإن كان صائباً؛ فلا يعده إعداداً حقاً للنظر والاستقلال، وليس عليك إلا أن تنظر نظرة صحيحة فى الخارج حتى تفقه هذا وتحزم به.

وكذلك الحكومة، إذا كانت متكبرة على الأمة لأمر، ناظرة إليها نظرة احتقار، ظلمتها من بعض الأوجه، فوضعت لها القوانين بمقدار هوانها عليها، وحرمتها بعض حقوقها وجعلت منها مقابر لبعض الفضائل.

بوالجملة، فإن الرؤساء المتكبرين، على اختلافهم، يؤثرون فى الأخلاق تأثيراً سيئاً، لأنهم مربون من وجه. فويلٌ ثم ويل لمن يخرج من سيطرة أب متكبر، إلى معلم متكبر، ثم يقع فى قبضة رئيس متكبر، وحكومة متكبرة؛ فإنه يذوق صنوف العذاب من نفسه!

وأما التواضع، فهو فضيلة يتبعها كثير من الفضائل وليس فيه رذيلة من هذه الرذائل، وهو خلق نعم الخلق.

\*\*\*

# الأخلاق

التي تكون في بعض الناس فضيلة

وفي بعضهم رذيلة

## الأخلاق

### التي تكون فى بعض الناس فضيلة وفى بعضهم رذيلة

قد يكون الخلق المحمود ذميماً بالنسبة إلى بعض الناس، وكذلك الخلق المذموم قد يكون حميداً بالإضافة إلى بعضهم، وذلك باعتبار أثره. يظهر هذا فى أخلاق شتى، نورد لك بعضها لتقيس عليه. فمن ذلك ما نقلناه فى باب الحياء، من أن الخجل يقبح فى الرجال، ويحسن فى النساء. أما وجه قبحه، فلأن الرجل بمقتضى صورته فى الجمعية، عليه واجبات كثيرة خارج المنزل، والخجل يمثل بعض أعماله فى صور مستهجنة، ويحول بينه وبين بعض هذه الواجبات، ويُصيره إلى الذلة. وأما وجه حسنه فى المرأة فلأنه يقبضها عن الابتذال فى المخالطة، ويكون فيها سياجاً على صيانتها، وهى فضيلة خليقة بالعناية فيها. ومع هذا فإن واجباتها فى تدبير منزلها وتربية ولدها، وليس فى خجلها ما يصددها عن مباشرة هذين على وجه كامل.

إن صيرورة المرأة إلى القوة والجلادة، وإن كان كمالاً فى الرجل، نقص فى حقها. ذلك لأن الائتلاف بينها وبين الرجل يكون حينئذ ضعيفاً والميل قليلاً، وربما نشأ عن ذلك ضعف الرأسة فى الأسرة، وعدم الوثام. وقد قيل فى المثل: «لا يستقيم الطحن بحجرين صليين». ومن الشواهد على صدق هذا، أن المرأة إذا زاولت حرفة كالتعليم زمناً حتى ظهر أثرها فى أخلاقها، وأشبهت الرجل، قلت الرغبة فيها، وانصرف الأكترون إلى تأليف أسرهم من غيرها. وإن للحرف تأثيراً فى الأخلاق وسحنة الوجه، ففكر فيه.

ومنها الميل إلى الزينة، بحيث يجد الإنسان من نفسه سائقاً إلى اتخاذ

الملابس الفاخرة، والحلى ونحوهما، وهو رذيلة فى الرجل، وفضيلة فى المرأة، على وزن ما سبق. وإنما كان رذيلة فيه، لأنه مناف للاقتصاد؛ وقد يخرج من الجلادة التى تنبغى له، ويخمد فيه جذوة النشاط، ويغريه بالكسل.

أما المرأة فتلك الجلادة غير مطلوبة منها. نعم لم يراع لاقتصاد فى زينتها، ولكن هناك أمر آخر أجدر منه بالمراعاة؛ ذلك أن الزينة وصف يدعو إلى تمام الألفة بين الزوجين، وقيام الأسرة على نوع من المحبة أكمل، ولهذا أحلت لها الشريعة المطهرة لبس الحرير، واتخاذ الحلى من الذهب والفضة. والأصل فى هذا ما جاء فى حديث رواه عدة من الصحابة، منهم على، رضى الله عنهم أجمعين، أن النبى ﷺ، خرج وبإحدى يديه حرير، وبالأخرى ذهب، وقال: «هذان محرمان على ذكور أمتى، حلال لإناثهم، وفى رواية حلّ لإناثهم».

ومنها الزهد، وهو احتقار الأموال وأعراض الدنيا، وهو ممدوح من الخطباء والوعاظ، وغيرهم من رجال الدين، ومذموم من الملوك والأمراء. وتوجيه ذلك أن كثيراً من الناس لم يطلبوا الدنيا برفق، بل تكالبوا عليها، وزلّت بهم الأقدام، فهووا فى بحرهما، وأوشكوا أن يذهب بهم تياره، ونتج من هذا كثيرٌ من الشرور والآثام. من ثم كانوا محتاجين إلى تنبيههم على ما هم فيه، وبيان المضار التى جاءت من إيغالهم فيها، يريدونه عرضها، وذلك عمل الوعاظ والخطباء، وغيرهم من رجال الدين. ومن البين أنه يجب أن يكون من أخص أوصاف هؤلاء، القناعة والزهد، لأنهما ملاك الفضائل التى يدعون إليها وليس الغرض أن يجعلوا كل الناس زهاداً ويوقفوا العمران،

ولكن الغرض أنهم يقتدرون حينئذ أن يرجعوا الناس إلى الاعتدال شيئاً  
ويقللوا الشرور.

أما الملوك ومن في معناتهم، فإن في زهدهم انفضاض الحاشية عنهم،  
وتفرق الأعوان من حولهم، وذهاب شارة الملك، وانتقاض أبهته، وزوال  
رهبته من نفوس العامة، وهو مما لا تحمد مغبته.

\*\*\*



السعادة مع التفرد محالة

ولزوم اجتماع الناس في توزيع

الخيرات المشتركة

## السعادة مع التفرد محالة

### ولزوم اجتماع الناس في توزيع الخيرات المشتركة

الإنسان لا يمكنه الاستقلال بتحصيل ضرورياته، فإنه على الأقل مفتقر إلى مطعم يحفظ به بقاء هيكله، وسراويل تقيه الحر والبرد، ومسكن يؤويه ويمنعه من العاديات. وإذا قدّرت له مطعمًا وملبسًا ومسكنًا غاية في السذاجة، احتاجت هذه إلى كثير من العمال والصناع، كزارع وطحان وخباز، ثم غزال ونساج وخياط، ثم بناء ونجار وحداد، ويتبع أولئك من الصناع والعمال الآخرين جماعة يكادون لا يتناولهم الإحصاء، وأعمال شتى كهذه لا يتأتى لواحد أن يباشرها وحده. ولهذا كان الناس في حاجة إلى الاجتماع، لتتوزع عليهم الأعمال المختلفة، ويقتطف كل من ثمارها، وهذا معنى ما يقال «الإنسان مدنى بالطبع»، وبعبارة موجزة، إنه بمقتضى الطبيعة، في حاجة إلى الاجتماع مع الآخرين، لا يمكنه التفرد.

هب أن الشخص إذا انفرد يأكل من نبات الأرض وخشاشها، ويتخذ له لباسًا من جلد الحيوان يصنعه كما تهيأ له، ويأوى إلى جحر أو مغارة، فهل يستقيم حاله مع هذا؟! وإذا ألم به مرض أعجزه عن تحصيل القوت، أو فاجأته في مغارته عرجلة من السباع، بله سبع واحد، والعوارض كثيرة، فكيف يكون حاله حينئذ؟!

إن الإنسان إذا عاش مفردًا، كان مثله كمثل نباتة فذة، إذا سلمت عفواً من الآفات حينًا، ثارت عليها في حين آخر ريح عاصف، فاجتثتها.

إن ما يجده الإنسان من الأُنس بمخالطة نوعه والتسلى بهم، وخصوصاً عند الحوادث، لكثيرٌ، قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي      على إخوانهم لقتلت نفسي  
ولا يكون مثل أخي، ولكن      أسلى النفس عنه بالتأسى

انظر كيف جعلت الشرائع، على اختلاف أنواعها، السجن نوعاً من العقوبات، وفي السجن حرمان الشخص من مخالطة نوعه.

وإذا أتيح لإنسان أن يعيش وحده زمناً، حُرِّم جميع المعارف التي يصيبها من مخالطة الناس، وبقي على مقربة من سائر الحيوان؛ إنما يتميز عنه ببقية من استعداده الفطري. ويمكنك أن تتعرف هذا مما تجده في القروى، بالإضافة إلى المدني، فإنك ترى منه غراً قليل التجارب. ومثل هذا الفرق تراه بين من يسكن الكفور الصغيرة، وبين من يسكن القرى إلى أن تنزل إلى الإنسان المفرد.

على أن الوسائل والدواعى التي تُقدره على طلب المعارف المتنوعة، وتدعوه إليها تكون معدومة في حقه.

وإذن، فالسعادة في اجتماع الناس، وتوزيع الأعمال عليهم، واقتطاف كل واحد من ثمرات أعمالهم، حتى يحصل الخير للجميع.

\*\*\*



الحكمة

في تشريع اجتماع الناس

في الصلاة والمواسم

## الحكمة

### فى تشريع اجتماع الناس فى الصلاة والمواسم

جاءت الشرائع السابقة بالاجتماع، فاليهود لهم اجتماعات فى كنائسهم، والنصارى لهم اجتماعات فى بيوتهم.

وكذلك الشريعة الإسلامية، جاءت بالاجتماع، ولكن على وجه أكمل؛ فجعلت على الناس أن يجتمعوا فى اليوم خمس مرات لصلاة الجماعة؛ وقد حض الشارع على هذا الاجتماع، وشدد فى طلبه. ففى صحيح البخارى، أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده، لقد هممت أن أمر بحطب فيحطب، ثم أمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم أمر رجلا فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم! والذى نفسى بيده، لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقاً سميناً، أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء!».»

والذى يلوح لنا من حكمة صلاة الجماعة أمور، منها: استيلاء عظمة الله تعالى على النفوس، وأخذ رهبته بمجامع القلوب، بما تحدته هيئة المصلين، وقيامهم فى صعيد واحد للعبادة، من التأثير. ومنها: الأئس الذى يجدونه فى اجتماعهم، والصلة، فإنهم إذا اجتمعوا فى اليوم خمس مرات حصلت لهم الألفة، وقويت الرابطة. وإن كنت فى شك من هذا فارجع إلى ما تعرف من حال المعاشرة، تجد أن الذين يقل اجتماعك بهم، قد يعودون أجنب منك، وإن كانوا من قبل أصدقاء لك. ومنها: ظهور جماعة المسلمين مظهر القوة، بهذه الاجتماعات المتكررة، التى تنبئ بائتلافهم ووحدتهم؛ وهذا داع إلى أن يعظم أمر الدين، ويرجع من ناوأه بالخيبة والخذلان. ثم تنبيههم إلى انتظامهم

فى أمورهم، وطاعتهم لإمامهم، بما يرون فى الصلاة من استقامة صفوفهم، ومتابعة الإمام.

أما احتفال الجمعة فهو أكبر، وعناية الشارع به أتم، قال تعالى: «يأبها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون». ذلك بأ المعانى السابقة، حاصلة فيها على وجه أتم، وتزيد الخطبة لدعوة الناس إلى ما يصلح أمور دينهم وديانهم؛ وقد كانت من وظيفة رسول الله ﷺ، ثم خلفائه من بعده. ولما تغيرت الأحوال، وبعُد الناس عن الدين، صارت إلى أجير، ربما لا يفقه شيئاً من أغراض الدين، ومصالح الدنيا، واتخذها حرفة كالتجارة، يرتزق منها، ويأخذ عليها أجراً، ولكنه حقير.

أما الحج، فهو ذلكم الموسم العظيم، الذى تُضرب له الأرض، ويؤمه المؤمنون من مشارقها ومغاربها، حتى يجمعهم فضاء رحيب، يكاد يمد بهم من تحتهم، ولهم عجيج يفزع منه الطير فى كبد السماء. وقد ورد فى كثير من الآيات والأحاديث، ومع هذا فلا نرى شيئاً أدل على عناية الشارع به، من جعله ركناً من أركان الإسلام، لا يتم معناه ولا تكمل صورته إلا به. قال عليه الصلاة والسلام: «بنى الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

أما حكمه، فمنها: التعارف بين جماعة المسلمين، وتأكد الرابطة. وإنك لترى كل عام، عقب الحج، ما يتجدد من الروابط والصلات، بين أناس وآخرين، ربما كانوا لا علاقة لبعضهم ببعض من قبل الحج.

ومنها: زيارة بيت الله تعالى، والطلاق على تلك البقاع التي فيها موضع الرسول، ومهبط الوحي، ومُتنزل القرآن. وهى، على قحولها، وبدعوة سكانها، وبعدها من الخصب والعران، تذكر بأن القوة التي فاضت منها فأذلت الجبابرة، والرحمة التي تشقق من كوثرها جداول وجعافر أروت الناس، ليس مما ينبغى أن يضاف إلى خصوبة أو مدنية؛ إنما هى عناية الله، وفضله المحض. وإذا كانت الأمم المتحضرة قد جعلت بيوت حكمائها وشعرائها مزارات يؤمها القاصى والدانى، ورأت لهذ معنى، فزيارة بيت الله، ومقر رسوله، ومنبع العرفان والحكمة، أولى.

ومنها: ما يعم سكان تلك الأجادب، الذين هم جيرانه، وحماة حرمة، من الخيرات التي يسوقها إليهم جمع الحجيج.

ومنها: اجتماعهم بعرفة، فى فضاء واحد، ووقت واحد، لنحو سماع الخطبة التي يجب أن تكون فى مصالحهم وأهم أحوالهم الحاضرة. عن رسول الله ﷺ: «الحج عرفة، أو كما قال». ومعناه: الإشارة إلى السر الذى فى هذا الركن، حتى صح أن يطلق الحج عليه؛ ونظيره إطلاق العين على الجاسوس، مما هو شائع فى اللغة.

هذا وإن الحج لمؤتمر عظيم للعالم الإسلامى، ينبغى أن يجمع عظماءه وأمرءه، يتشاورون فى أمورهم، ويقضون فى مصالحهم. ولكن المسلمين غيروا وبدلوا، فحرموا هذه الثمرات، ولن يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.



الحبة وأنواعها

وسيرة الإنسان مع أهل نوعه

## المحبة وأنواعها

### وسيرة الإنسان مع أهل نوعه

المحبة: ما تجرد في نفسك، من الميل إلى ملائم لك. ويقابلها البغض، وهو النفور من غير الملائم. وهى وصف شريف جداً، لأنها تخمد جذوة الرذائل؛ ومعنى هذا: أن رذائل الشخص قلما تصيب من أحبه، ومن ثم قيل: العدالة خليفة المحبة، تستعمل حيث لا توجد المحبة.

بيننا فيما سبق، ثمرات الشفقة وأثرها فى العالم، ولا شك أن مقداراً كبيراً منها مبنى على المحبة. فقد رأينا بعض المعلمين جفاة غلاظ الأكباد، لا يرففون بأسيرهم، إلا أنهم مع بنينهم أرق أخلاقاً من النسيم، وأعطف من الدجاجة. ذلك بأن الشفقة ليست خلقاً أصلياً فيهم، إنما هى ثمرة من ثمار المحبة.

الإنسان إذا أوتى قسطاً وافراً من محبة الناس، صار بقدر قسطه إنساناً خيراً. فالذى يحب أمته محبة صادقة، يسعى جهده فى خيرها. والذى يحب الناس، ويخلص لهم، يسعى فى حاجاتهم، ويكون قريب الخير، بعيد الشر، ويدهم فى سرائه وضرائه، ويبقى حياته فى راحة. ومن لم يوفق إليها، يلق كثيراً من الشدائد، ولا يكون له نصيب فى الأانس الحاصل بالاجتماع، وتكون خلوته خيراً. ولهذا ينبغى أن يكتر المربون من حديثها للناشئين. ويلفتوهم إليها، قال سقراطيس: إنى لأكثر التعجب ممن يعلم أولاده أخبار الملوك، ووقائع بعضهم ببعض، وذكر الحروب والضغائن، ومن انتقم أو وثب على صاحبه، ولا يخطر ببالهم أمر المودة، وأحاديث الألفة، وما يحصل من

الخيرات العامة بالمحبة والأنس . وإنه لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش بغير المودة، وإن مالت إليه الدنيا بجميع رغائبها . فإن ظن أحد أن أمر المودة صغير، فالصغير من ظن ذلك . اهـ .).

وهى أجناس : فمنها : محبة الولد لوالديه؛ فإن المحبة، والإخلاص، والاحترام، ديون يجب على الولد أن يؤديها، إزاء نعم والديه عليه . قال عليه الصلاة والسلام : «الولد مجبنة مبخله» ومعناه، كما هو بين، يدعو إلى الجبن والبخل، ويحمل عليهما . فالوالدان لم يكفهما سائر نعمهما على الولد، حتى صارا إلى التنازل من فضائلهما الشخصية . وقد قال تعالى : ولا تقل لهما أف، ولا تنهرهما، وقل لهما قولاً كريماً . أما تفصيل نعم الوالدين فيبين، فلا نطيل فيها القول .

ومنها : محبة المعلم للمتعلم وعكسها؛ فالمعلم متى أخلص في وجهته، وتوخى الخير حقيقة للمتعلم، وكان المتعلم مجتهداً قابلاً، يبغى الخير، تمت الألفة بينهما، على نحو ما يكون بين الأب والابن . فإن المعلم، حينئذ، يحاول نقل صورته المعنوية إلى التلميذ، ويكون هذا الأخير في المعنى صورة منه .

ومنها محبة الإنسان لأهل دينه : قال تعالى : «إنما المؤمنون أخوة» . نعم إنهم ليسوا إخوة من النسب، ولكن اتحادهم في العقائد والشعور العام، وخضوعهم لسلطان دين واحد، مما يقرب بعضهم من بعض ويجعلهم أخوة . فاللازم أن يحققوا معنى هذه الأخوة، بأن يستطلع بعضهم أحوال بعض، على الأقل، وإن كان هذا في المشرق، وذلك في المغرب، ويتعاونوا ويتناصحوا . وإلا فهم مؤمنون، صورة، وإنما الأخوة للمؤمنين حقاً .

ومنها: محبة الجار؛ لأنه امرؤ شديد العلاقة بك، كثير الروابط؛ وإن كان من بنى وطنك وهو الغالب، فهذه علاقة ثانية؛ وإن كان مؤمناً، فهي الثالثة. وقد سنت الشريعة الإسلامية للجار كثيراً من الحقوق، فارجع إليها. في صحيح البخارى: قال عليه الصلاة والسلام: ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.

ومنها محبتك لوطنك وبنيه؛ قال ابن الرومى:

وحب أوطان الرجال إليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا

فوطنك هو الذى نشأت فيه، وأقلتك أرضه، وأظلتك سماؤه، وغذاءك نباته وحيوانه، وأرواك ماؤه.

وطنك تراث لك من آبائك، لم يصر إليهم عفواً، إنما ملكوه بعد أن أدوا ثمناً نفيساً، هو دماؤهم التى سالت على حدود المناصل، وأطراف الأسل، وارتوى منها هذا الثرى، الذى تطؤه الآن بنعليك. فإن استطعت فاخلع نعليك، نعم ما أنت بالوادي المقدس طوى، ولكنك بوادي النيل: حيث دماء آبائك المسفوكة، ولحومهم البالية، وعظامهم الناخرة.

خفف الوطاء ما أظن أديم الأَرْض إلا من هذه الأجساد  
وقبيح بنا وإن قدم العهد د هوان الآباء والأجداد

ألم تر إلى اليهود لما لم تبق لهم حكومة ولا وطن،، تشتتوا فى البلاد، وبطلت جامعتهم، وصار كل منهم نزيلاً فى مملكة، ثقل الظل، جامد النسيم. وبعض الممالك جعلوا يشردونهم من بلادهم، ويذبحون شيوخهم وأطفالهم، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم. تلکم أمة الروس، فانظروا إلى ما صنعت بهم.

ويا ليت شعري: ما معنى الأمة؟ وكيف يستقيم لها حال إذا كان كل جماعة منها نزلًا في أمة أخرى، تسومهم الخسف، لا في العير ولا في النفير!

إن الكلاب إذا توطن جماعة منها في بقعة، فزاحمها آخر ليس منها، أخذتها سورة الغضب، وكشرت عن أنيابها فنبحتته، وصالت عليه، وتأحدث لإجلائه عن موطنها. ومثل هذا تشاهد في القطاط المستوطنة في منزل، عندما يزاحمها قط أجنبي؛ وأظن أن هذا سنة في سائر الحيوان الأعجم.

قد يكون لك البيت في الحارة الرديئة، وهو مع ذلك ضيق الحجر قليل الوضوء، فاسد الهوى، فنحن إليه وتتعهده بالإصلاح. فياعجبًا لك! كيف لا تحفل بوطن، أما شماله فمطل على بحر الروم، وأما جنوبه فمتصل بالسودان، يشقه النيل، ويغطي تربته بساط أخضر من النبات، وتعلوه سماء زرقاء صافية الأديم، ويتهادى بينهما النسيم؟! إنك إذاً لظلوم! أما بنوه فإنهم إخوانك الذين تربطهم بك روابط شتى، كاتحاد المصالح، والعوائد، والحكومة، واللغة، والقانون، والتربية، والفكرة في الجملة. فأنت في أي بقعة من وطنك، في بيتك وبين عشيرتك. إذا اعتدل النيل في فيضانه كنتم سعداء معًا، وإن نقص عن الحاجة أو طغى، فأنتم على حال واحد. وكذا إذا عدل القانون والحاكم، أو جارًا، فإن شعوركم يكون واحدًا؟! فلا تعتبر هذه البلاد مع ذلك وطنًا ينبغي أن تحبه، وتحرص على خيره، وسكانها إخوانًا تودهم وتعمل لصالحهم؟! إنك إذاً لظلوم!! إذا ارتحلت إلى جهة نائية نظر إليك قدر ما ينظر إلى وطنك، كأنك تحمل رايته الحمراء، ذات الهلال، وفي صورتك الصغيرة، انطوى هذا العالم الأكبر!! أفلا يكون هذا داعيًا إلى محبة

الوطن وبنيه، والسعى فى رفع ذكرهم، وإعلاء كلمتهم؟! نعم إن كنت ابناً باراً وأخاً يفهم هذه الروابط! بل ينبغى أن تحب الناس جميعاً، وتعاملهم بالمعروف لأنهم يخدمونك، وإن نأت الديار، واختلفت المذاهب. إن كنت تشعر من نفسك بذلك، فأنت إنسان كامل، وإلا فإن اقتصر على محبة المصريين، فما أحراك أن تدعى مصرياً فقط. نعم إن حقوق المصريين عليك أكثر.

وأخيراً لا يحسن أن يفوتنا تنبيهكم إلى أن الأديان على اختلافها، قام فيها جماعة يدعون العلم بها، وهم أبعد الناس عن أغراضها فزرعوا البغضاء فى نفوس الناس وولدوا الشقاق فيهم، والتفرق بينهم، وصار الواحد يظن أن من ليس على دينه له فطرة أخرى. وتلا هذا كثير من المصائب فى بنى الإنسان، فلا يخدمونكم مثل هذا. فالأديان إنما جاءت للتأليف بين الناس، وإصلاح الفساد، من عوائدهم ومعتقداتهم، فلا ينبغى تأويلها بالتفريق والعداوة بينهم، وجعلها مانعاً من محبة الناس، بعضهم لبعض، ورحمتهم، ومعونتهم، عند الحاجة. فالخلق عيال الله، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

\*\*\*



## الصدّاقة

### وما يجده الصديق مع صديقه ومع الناس

إذا تمت المحبة بين شخصين، وكان هناك مشاكلة فى الطبع، وتوافق فى المذاهب، وائتلاف تام حتى كأنهما شطرا كرة، أطبق أحدهما على الآخر، حصلت الصداقة. وكما أننا لا نجد فى الأشياء المحسوسة، كالألوان والأصوات، اتفاهاً تاماً بين فردين منها حتى نحسبهما واحداً، كذلك الشأن فى أحوال النفس، مع كثرتها التى لا تنضب. قال أرسطاليس: إن المعول فى الصداقة الحقّة، على السرور الذى يجده أحد الصديقين، من فضائل الآخر، وأوصافه الراسخة. ولهذا لا تحصل إلا بين الأخيار، وتدوم الدهر بينهم. أما المنفعة المشتركة، والميل العرضى، فليس من دواعيها. نعم إنهما سبيان فى الاتصال، الذى يؤدى أحياناً إلى ضرب منها، ولكنها حينئذ تكون مهددة بالزوال؛ لأنه متى انقطعت تلك المنفعة، فما أقرب انحلال الصداقة! كما أن عروض ما يخل بالمساواة بين الصديقين إخلالاً واضحاً قد يبطلها. لأن تذكر المساواة السابقة، مما يصير الحال الطارئة وقرا على الصديق، الذى لم تلاحظه عين العناية. ومن أجل هذا، كانت التغييرات العظيمة فى حال أحد الصديقين، تنتظر منها انحراف مجرى الصداقة. اهـ بتصرف.

والصداقة التى تتعقد فى الصغر، تكون أمتن وأجدر بالبقاء، من التى تتعقد فى الكبر. فإن صراحة الشاب، وإقباله على الناس، وثقته بهم، تكون أكمل.. ذلك بأنه قضى أيام عمره فى دار أبيه، فلم يبلهم، وهو مع هذا شارع فى دراسة العالم، ومدفوع إليها، بخلاف الكبير، فإنه بلاهم، فصار حذراً منقبضاً عنهم بعض الانقباض.

أما الأخلاق التي ينبغي أن يكون عليها أحد الصديقين، فهي في الجملة، الأخلاق التي ينبغي أن يكون عليها مع سائر معاشريه، وإن كانت تظهر هنا في صورة أكمل. وذلك كالصراحة، وقد تصل بين الصديقين إلى ألا يكتم أحدهما من الآخر أمراً كائناً ما كان؛ والسخاء، وقد ينتهي أمره إلى أن يصير أمره إلى أن يصير مال أحدهما كأنه مشترك بينهما، كما قيل: (لا حرج على الصديق في مال أصدقائه)، والاحتمال، ونحوها.

وثمره الصداقة على وجه عام، أن كلا من الصديقين يجد في الآخر كمالاً له، في رأيه، وتجاربه، ومعارفه، كأنه أضاف إلى عمره عمراً آخر، أو تضاعفت نفسه، وظهرت في هيكلين.

قال بعض الحكماء: الصديق هو آخر في الشخص، إلا أنه أنت في النفس.

وليحذر الأصدقاء من الأمور الآتية، كما نبه علماء الأخلاق:

إذا لاحظت عين العناية، فجزت حالك إلى أرقى منه، فلا يدفعنك ذلك إلى الفخر، ولا توجه عنایتك إلى أن يطريك صديقك، ويثنى عليه، بأنك خليق بهذه المنحة. ويطلب مع هذا أن تعرض عليه مما نلت، على وجه لا ينفره.

إذا أصاب صديقك نعمة، فكن متحفزاً لأن يطلعك على ما صار إليه، مع مقاسمته سروره، ولا يأخذنك الطمع في مقاسمته ذلك الذي صار إليه. أما إذا تشاقلت عن مشاركته في سروره، والإقرار بأنه جدير بذلك، صرف تشاقتك إلى الحسد.

وإذا أصابتك جائحة من الدهر، فلا تسع في كتمانها عنه، ولا تنقبض من حنو يهديه إليك، وإن كان مثل هذا الحنو مما لا ترتاح إليه النفس أحياناً.

وإن ألمت بصديقك يوماً ملمات، واستطعت أن تصرفها عنه، أو تحتمل شيئاً منها، فافعل؛ ولا تلح عليه في طلب إخبارك بما ألم، وكيف ألم. وكن حذراً عند ظهور شفقتك عليه، فلا تظهر منها قدرًا يثقله. وإياك وأن تظهر له أنه السبب فيما ألم به، كأن تقول له: أخطأت فيما صنعت، ألم أقللك إن ما صنعت يؤدي إلى ما حل بك؟ فإن مثل هذا القول مما لا يتحملة أحد من الناس، جر على نفسه مصيبة، وإن كان حقًا كيما كان، بل تراه في هذا الحال يبحث عن آخر يلصق به الخطأ، ليخلص من الندم على ما فرط منه.

ونذكرك بأن بعض الناس قد يصطفون الجهلاء لأمر يعجبهم فيهم، فيلقون منهم عنتاً. وإذا انحلت صداقتهم أفشوا أسرارهم، وأوقفوا الناس على ما لا يحبون، فاحذرهم.

احذر عدوك مرة      واحذر صديقك ألف مرة  
فلربما انقلب الصديق      ق فكان أعلم بالمضرة

هذا، وينبغي أن تحذر مع جميع الناس أموراً أنبهك على واحد منها، جدير بالعناية، وهو عدم التعويل على أقوالهم، وصورهم التي يظهرون لك فيها، حتى تبلوهم.

\*\*\*

ما ينبغي الاقتصار عليه  
من الأكل والملبس ونحوهما

## ما ينبغي الاقتصار عليه

### من المأكل والملبس ونحوهما

أسلفنا أن الإنسان مفتقر إلى مطعم يحفظ به بقاء هيكله، وسراويل تقيه الحر والبرد، ومسكن يؤويه ويمنعه من العاديات. فينبغي أن يقتصر في أمر مأكله على ما يؤدي هذا الغرض، ولا ينال منه إلا بقدر ما يغذى جسمه، ويحفظ اعتدال مزاجه، ويعوض ما فقده بالحركة والعمل. لا يزيد على ذلك إلا بمقدار يدفع عنه عيب البخل باعتبار العرف؛ فالمعدة، كما قال ﷺ، بيت لاداء. ولا يفوتك أن خروج المأكل عن الباطة، والإكثار من ألوان الطعام، والاستعانة على تناول منه بنحو التوابل، وصرفه إلى اللذة، حتى كأنما عاش الإنسان ليأكل، مما يذهب بالقوة والصحة، ويستتبع كثيراً من الأمراض والآلام. ويظهر لك ذلك إذا قارنت بين الذين يعيشون معيشة بدوية، وبين الموسرين من سكان المدن.

وينبغي أن يقتصر الإنسان في أمر الملابس على ما يكون موافقاً للصحة، من جهة سعة الملابس وضيقها، وحرارة الجو وبرودته، مساعداً له على العمل، غير ذاهب بنشاطه، ميسراً له خلال الخير، نحو الصلاة، فإن للملابس بلا مزية تأثيراً في بعض العوائد والأعمال. ولا يخرج فيها عن الحشمة، ولا يتأنق فيها إلا بمقدار ما جرت عادة المعتدلين من طبقتهم، حتى لا يزدريه العرف، ولا يسخر به. وإن «القفطان» وخصوصاً بعد تعديل قليل، خير من «البنطلون».

وكذلك ينبغي الاقتصار في المسكن على أن يكون موافقاً للصحة من

كل وجه، حسن الشكل، متين البناء. يروى أنه ﷺ قال: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً. أما النقوش والزخرف، وارتفاع البناء فوق الحاجة، مما يضاعف النفقات بغير معنى صحيح، فهو تبذير مذموم.

غالى بعض الناس، وخصوصاً فى القرى، حيث يغلب التفاخر، وتشتد الغفلة، فأتلف جميع ثروته فى تشييد منزل، بل احتمال بعضهم من الدين فوق طاقته، فلم يستطع أن ينهض به.

وكذلك الحال فى الملبس، جعله كثير من الشبابين زينة، فتأنقوا فيه، وأكثروا منه ما شاءوا وشاء لهم الهوى، حتى أتلفوا فى سبيله أموالاً جزيلة. وخرج كثير من النساء عن الحد فى الحرص على اللباس المزين، ووقع من أجل هذا بعض الأسر فى الضنك والفاقة؛ فقد يكون عند الرجل قليل من المال جمعه لأمر يعرض، أو لأمر بعينه، فلا تحسب المرأة ذلك شيئاً فى جانب حاجتها إلى حلة مزخرفة، فيقع الرجل بين حالين، أحدهما شر من الآخر: إما أن تفوته حاجته على شدة اضطراره إليها، أو يقع مع زوجته فى شقاق.

وكذلك أمر المطعم، أوقع التأنق فيه، والإكثار منه، عدداً من الناس لا يحصى، فى انحراف الأمزجة، واختلال الصحة. ولو تأتى لنا إحصاء مرضى بطونهم وقتلاها، لحصلنا على عدد يوقع فى الدهشة، وعلمنا فوق علمنا الآن، أن العالم بأسره خسر جزءاً من قوته أى جزء.

وبالجملته، فإن مجاوزة الناس الحد، فى المطعم والملبس والمسكن، ألقى على ظهورهم أعباء من النفقات ثقلة، ففقدوا راحة الدنيا فى سبيل جمعها، وأمات فيهم كثيراً من الفضائل، وأحيا كثيراً من الرذائل، فقل الخير وكثر الشر. وحبذا لو تأتى إنفاق هذه القناطر المقنطرة، من الذهب والفضة، فى إصلاح شأن الإنسان وإكماله.

من أنتم؟ وماذا يراد منكم؟

كلمات قالها بعض المدرسين فى مدرسة المعلمين الناصرية يخاطب بها  
الطلبة الذين قبلوا فيها سنة ١٩٠٩ - ١٩١٠ يوم استقرارهم بها

## من أنتم؟ وماذا يراد منكم؟

الفضيلة، ونعنى بها الخلق الفاضل، والعلم، هما السبب الأقوى فى  
رقى الإنسان. والرذيلة، ونعنى بها الخلق الناقص، والجهل، هما السبب فى  
هبوطه عن معارج الكمال. فكل أمة عليها أن تسعى فى الاقتراب من  
الأولين، والابتعاد من الأخيرين، قدر حرصها على رفعة شأنها وبُعد صيتها.  
وقد تدبتكم هذه الأمة المصرية، التى قعد بها بعض أخلاقها، وعدم رسوخ  
قدمها الآن فى العلم، والتى أنتم من أعضائها، لتخلفوها فى تربية أبنائها،  
وتخرجوهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، وتقوموا فيهم باستئصال الرذيلة  
وغرس الفضيلة، كما انتدبت غيركم من المعلمين. فاسعوا جهدكم فى أداء ما  
عهدت به إليكم على الوجه الحق، سعيًا تعلمون فيه ضمائرهم وأفكاركم، لا  
أرجلكم وأقدامكم؛ وهذا قول مجمل أفصله لكم بعض التفصيل:

أيها الطلاب! عندما كنت طالبًا مثلكم فى هذه المدرسة، قرأت فى  
بعض كتب الكيمياء: «قال الفاضل لافوازييه كذا»، فقلت فى نفسى هذا خُلفٌ  
بين! لأن كلمة فاضل تستعمل للدلالة على الاتصاف بالعلم! وأنى جاء العلم  
لمسمى بمثل هذا الاسم؟! ذلك أنى كنت أتوهم أن لفظ علم، ليس من حقه  
أن يستعمل إلا فى الفقه والنحو والصرف، وأشباهها، مما يُعلم فى الأزهر.  
كما كنت أستنكر بعض الاستنكار، أن يقال: «العالم الفاضل فلان أفندى»!

جرنى عهدى بنفسى يومئذ، وإن لم يكن من غرضى القول فى العلم أصالة،  
أن ألم بما يأتى، فربما كان بينكم من يزعم مثل هذا الزعم:

إن موضوع العلم، كما يكون اللغة، كالنحو والصرف والبلاغة، يكون  
كل شىء فى هذا العالم، من إنسان وحيوان ونبات وجماد، وجميع ما تقع  
عليه حاسة، أو يحيط به فكر. ولئن كانت ثمرة علم الصرف مثلاً صون  
اللسان عن الخطأ فى المفردات، ومراعاة قانون اللغة فى الكتابة، إن ثمرة  
الدراسة لهذه الأشياء التى تحيط بنا، بسطة سلطاننا على العالم، وتسخيره فى  
مصلحتنا، واندراجنا اندراجاً بيناً فى المخاطبين بقوله تعالى: «خلق لكم ما فى  
الأرض جميعاً». ولا ينبغى لنا أن نستهن بدراسة علم، وإن كان موضوعه  
ضئيلاً حقيراً فى نظرنا، فليس ثمرة علم بحيث تصدنا حقارة موضوعه عن  
دراسته بعناية، وإن كان علينا، يوم يُوكل الاختيار إلينا أن نوجهه إلى ما  
يرتبط بسعادتنا وإتقان عملنا فى هذا المجتمع. وربما كانت دراسة الشىء  
التافع، كالنمل، سبباً أو جزءاً من السبب فى تيقظ شعور فينا، أو تحرك ميل،  
بحيث تكون هذه اليقظة والحركة أساساً متيناً لأعمال كبيرة، تجلب لنا السعادة  
عاجلاً وأجلاً.

إن كانت الأخلاق الفاضلة سبباً بيناً فى تحصيل العلوم والعمل بها، فإن  
للعلوم كذلك أثراً فى الأخلاق لا ينكر. فمن درس الحيوان ووقف على  
الأسرار والثمرات المودعة فيه، خليق بأن يجد من نفسه رحيماً به شفيقاً عليه.  
لهذا أنصح لكم باستقبال جميع العلوم الحديثة، التى تلقى عليكم، بالإكبار  
والإقبال التام، حتى ترتوى بها نفوسكم، وتخصب، إن شاء الله تعالى.

أيها الطلاب! ليس العلم - وإخالكم تعرفون رفعة شأنه من قبل - أمراً

أخلق بعنايتكم به من الخلق الفاضل . فإن هذا الأخير عليه تدور السعادة ، كما ستعلمون مما يأتي ، فى خلال الدراسة . إن كان العلم بمنزلة مصباح فى يد العامل يستضىء به وقت العمل ، فإن الأوصاف النفسية ، وهى على الجملة أخلاق الشخص ، هى التى تعده للعمل ، وتدفع به إليه ، وتمسكه فى خلاله .

فالعلم بمثابة بصر الشخص ، والفضيلة بمثابة قوته . النفوس الكبيرة تحصل لنا العلم ، والعلم لا يحثل لنا النفوس الكبيرة . إن عظماء الرجال فى هذا العالم ، الذين تولوا هداية أو إصلاحاً أو فتحاً ، أو قاموا بكشف أو اختراع ، لولا ما هم عليه من شجاعة وثبات ، وصبر ومحبة للناس مثلاً ، لم يستطع عالمهم أن يعمل بعلمه شيئاً . أما الذين لم يكونوا منهم فى مصاف العلماء - وهم أكثرهم فيما يظهر - فقد كانت رءوس أموالهم الأخلاق الفاضلة وحدها .

إن الخلق الفاضل يهدى إلى المجتمع الإنسانى رجالاً عاملين نافعين ، أكثر مما يهدى العلم . وإن الرجل الكريم الأخلاق ، الذى لم يسمع من العلم إلا صوت ضميره الطاهر ، ولم يقرأ من كتبه إلا أسطراً من صحيفة الكون المنشورة لمطالعة القارئ والامى ، أكثر نفعاً لهذا المجتمع ، وأقل ضرراً عليه . كما فى سجون هذا العالم من رءوس كبيرة بيضاء ، لأن معها قلوباً صغيرة سوداء؟! ذلكم بأ العلم إذا صحبه خلق الشر ، خليق فى الكثير من أحواله بأن يُطرح فى السجون المظلمة ، حتى يستريح هذا الناس من شره . وجملة القول : إن رجال الخير والعمل ، هم رجال الأخلاق ، قلّت معارفهم أو كثرت ؛ وإن رجال الشر والفراغ ، هم رجال الرذيلة ، قلّت معارفهم أو كثرت . فأحلوا الأخلاق الفاضلة من نفوسكم محلها .

أيها الطلاب! نحن نعترف، مع الأسف، بأننا كذابون، لا نصدق في قول ولا عمل، غشاشون، إذا ولى واحد منا أمراً لا يديره على وجهه. لا يجلس بائعنا بين الجمهور، يبيع بضائعه منه بالصدق والأمانة، إزاء ربح لائق تقوم به معيشتته، بل يجلس جلسة لص محتال، وبضائعه أمه وسائل لرواج حيله ونفاذ غشه. يزيد في الثمن زيادة فاحشة، ويعرض الرديء باسم الجيد، وينقص المكيال والميزان؛ ويريك الشيء، وعند نقد الثمن يحاول أن يخدعك بإعطائك أدنى منه. ويقول فيكذب، ويؤكد قوله بالأيمان، فيكون كأبى المثني:

### وأكذب ما يكون أبو المثني إذا آلى ميمناً بالطلاق!

ويسلبك من النقود ما استطاع، كما يسلبك من الزمن، وثقتك بالناس، وركونك إليهم، وأسك بهم، شيئاً كثيراً. وصانعنا أيضاً يجر على سننه: يقول فيكذب، ويعد فيخلف. وموظفنا لا يسعى في طريق الإصلاح لقومه، بل يسلم نفسه إلى الأغراض والأطماع، ولا يهمله عدل ولا حقيقة ولا مصلحة؛ إنما هي صور يرد أن يدفع بها سؤال من فوقه. فالجمعية صورية، وكل يعمل لنفسه وإن آذى غيره، ويسعى في تحصيل المال من وجهه ومن غير وجهه، بلا مبالاة بالفضيلة، ولا رجوع إليها في شيء. إننا وكلون غير مستقلين، يغلب علينا التقليد وصرخة واحد ينقاد لها الجمع من غير تفكير؛ وليس فينا من يعول على نفسه حقاً. وهذا مما يجعل كثرتنا قلة، وألوفنا لا يساؤون أحاداً. إننا مغرورون؛ نحسب لأنفسنا، في ذاتنا، وبالإضافة إلى غيرنا، ما ليس شيئاً. ولاغرور من أسباب الغطرسة، والمقت والجهل والتأخر. إن رفعا أصواتنا نفخر بما شيده قدماء المصريين من أهرام ونحوها، لدلالة ذلك على وجود بعض الصناعات والعلوم فيهم، فما أخرى هذه

الأصوات العالية فى الفخر، أن تصرف فى الشكوى من سوء الطالع؟! لأننا من يوم تشييد هذه المفاخر المزعومة، ابتدأت أغالال العبودية توضع فى أعناقنا، فأخذنا نهبط إلى الأخلاق التى استقرنا عليها اليوم. وما كان أحسن حالنا لو كنا فى عصر ابتناء تلك لامفاخر الوهمية، نرعى الإبل والشاء فى الصحراء، وبقينا على أخلاق الفطرة؟! إننا جاهلون؛ ينبغى أن نفكر حتى نشعر بجهلنا، ونعمل أقدامنا فى سبل العلم، ونلقى عنا لباس الكسل، الذى طالما أخذناه. إن كنا قد سبقنا الأمم المتأخرة خطوات، فقد سبقتنا الأمم المتقدمة فراسخ. هذا الأخلاق ونحوها، مما نحن متصفون به، هى السبب فى تأخرنا، حيرتنا، وتألنا.

وإلا لا نشك فى قدرة المعلمين المخلصين الأمناء، على أن يجعلوا من الصبى الصغير، رجلا كبير النفس، شريف المقصد، طاهر الذمة، طيب الأخلاق؛ ولا سيما متى طال الزمن، وانتشرت التربية فى الأسرة والأمة. وإلا فما لنا نشاهد الذى نشأ بين قوم مستمسكين بالصدق، يكون صدقاً، وابن اللص يصير لصاً، إذا لم يكن للقدوة الحسنة أو السيئة تأثير؟! ومثل الصدق والخيانة، غيرهما من الأخلاق، إلا النذر الذى يرينا التأمّل خروجه عن طاعة الشخص، وارتباطه بالعصب تمام الارتباط، وانقياده لأحواله المختلفة، كالجزع من أقل شىء. على أنه ليس من البعيد أيضاً، إمكان التأثير فى هذه الأخلاق، بواسطة التأثير فى الأعصاب. إن الأخلاق والأميال موضع للتغيير. وكما أن النواة متى صادفت الغذاء اللائق صارت نخلة كبيرة، كذلك الخلق، متى مدته الملائات والفرص، صار ملكة راسخة، ووجدانا يتعسر أو يستحيل قلعه. كم من سخي بعض السخاء، صار فى آخر أمره مغرى بتوزيع

ماله فى طرق الخير، لا يكاد يمك من قوت يومه؟! صيره إلى ذلك ثناء الناس عليه، مثلاً، وتوالى بذله، حتى استولت على نفسه ملكة السخاء. لذلك يقال بحق: السخاء بالتسخى. وكم من ذمة صالحة بعض الصلاح، رفعتها أمور إلى مرتبة شامخة، حتى صار صاحبها حريصاً على طاعة ضميره، حرص الجبان، جبان الحرب على نفسه؟! وكم من أبى صادفه فى طريقه أشياء أنسته ما كان له من الإباء؟! وكم من خائن كان يتردد ويرتجف فؤاده عند سرقة الدرهم، أصبح لا يتردد عند سرقة القناطير، وسفك الدماء، بعد أن أحرص ضميره وقضى عليه؟! ولكن استعداد الأخلاق والأداب للغرس والحث، والمد والجزر، أتم ما يكون فى زمن الصغر. ولهذا سسهل علينا نوعاً ما، أن نرى بعض الرذائل فى الصغير، لبقاء أملنا متعلقاً بإقلاعه عنها، ونزوعه إلى الصلاح. أما إذا شب على الرذيلة فقد انتهى الأمل فيه، وطال الحزن عليه.

أيها الطلاب! - أنتم الذين رضيتهم هذه الأمة أن يخلفوها فى أبنائها، تقومون فيهم بنشر العلم وبث الفضيلة، حتى تؤهلهم لأن يكونوا فى الغد أمة خيراً منها اليوم، أروح بالاً، وأعلى قدراً، وأرفع ذكراً.

أنتم الذين يستطيعون، تمام الاستطاعة، أن يؤدوا لقومهم وديارهم، المعونة الكبرى، متى أخلصوا فى أعمالهم، وفكروا حقاً فيما نيظ بهم، ولم يكن همهم كسب المال. أنتم الذين رأات الأمة معونتهم فى الحال، ليعينوها فى الاستقبال عند قدرتهم. عجلت لكم الثواب على ما لم تفعلوا بعد، فرحبت بكم خمس سنين على مائدتها، وقدمت لكم من الكتب ووسائل التعليم، ما تحتاجون إليه، وأعدت لكم المعلمين على نفقاتها، كما أمدتكم

بشيء من المال. فعلت كل هذا الاعتراف بهذا الإحسان، والتفكير من اليوم،  
فى أمر أبنائها وبناتها، قدر ما يرضى لكم زمن الدراسة، حتى تقابلوا هذا  
الثواب المعجل، بشيء من الواجب معجل. وهل جزاء الإحسان إلا  
الإحسان؟!!

أنتم الذين رضيتهم هذه الأمة قُدى لأبنائها؛ فأصلحوا أنفسكم بآداب  
والفضائل، حتى يكون لهم منكم قُدى صالحة.

أنتم فى الأمة صنف من الكتَّاب متميز، بأيديكم من نفوس أبنائها  
وبناتها، صحفٌ نقية بيضاء، فاكتبوا فى هذه الصحف النقية البيضاء بمداد  
الفضائل، ما تستطيعون.

أنتم فى الأمة صنف من الزراع متميز، بأيديكم من نفوس أبنائها  
وبناتها، تربة طيبة مخصبة، فخذوا أهبتكم لأن تغرسوا فى هذه التربة الطيبة  
المخصبة، من الآداب والفضائل، ما تستطيعون.

أنتم فى الأمة صنف من الأمناء متميز، أودعتكم الثمين النفيس من  
قلوب أبنائها وبناتها، فاتقوا الله تعالى أن تمسخوا هذه القلوب الطيبة الطاهرة،  
بتفريطكم فى جانب الأدب والفضيلة.

خذوا أهبتكم لإصلاح قلوبهم، قبل أخذها لإصلاح ألسنتهم. وإلا  
فماذا تنفع السنة مستقيمة، وقلوب معوجة؟!!

وفكروا من الآن، فى أن هذا أول واجب عليكم، حتى تنتهى هذه  
الفكرة يوم مباشرتكم لعملكم بالوجدان.

وعودوا أنفسكم اتباع ما توحى إليكم به ضمائرکم، لا ما تزينه لكم

أهواؤكم . وإن تلجلجت هذه الضمائر التى منيت منّا بالقطيعة، فهذا كتاب الله تعالى وسنة رسوله، فاحرصوا على الأخذ بأدابهما . ولا ينبغى أن تعتصموا بالمندوب، من إرسال العذبات، وإحفاء الشوارب، وإعفاء اللحى، وتنصرفوا عن الواجب الذى يقضى به مثل قوله تعالى :

«إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون» .

لم أر أشد تأثيراً فى تكوين الفضيلة فى النفس، من قراءة قصص الفضائل وسير الفضلاء؛ فاحرصوا، من الآن، على جمع ما ترونه منها موافقاً للناشئين، حتى تلقنوهم إياه متى جاء الوقت .

وخذوا من الآن، فى التأمل الصادق، والنظر الصحيح، فى أخلاقنا، وما جرته علينا، حتى يصبح لهذه المسألة الخطيرة موضع رحب من صدوركم . وأسأل الله تعالى أن يتولانا بمعونة منه، ويوفقنا لإيقاظ ضمائرنا، واستماعنا لما تناجينا به؛ كما أسأله تعالى، أن يهب لنا الإخلاص، والصدق فى القول والعمل .

\*\*\*



## الأخلاق العملية

زرت الأستاذ - وحمة الله - يوماً في منزله، عقب رحلة إلى مستشفى الرفق بالحيوان، فسألني عن الصندوق الذي يواجه الداخل من باب المستشفى، وعمما دفعته في الصندوق عقب الزيارة، ولما علم بأننا لم ندفع شيئاً قال: وما فائدة الزيارة إذا لم يتبعها إحسان؟ ثم كان درس في الأخلاق العملية، استغرق نحو ساعتين، على عادته في المحادثة التي كانت تتحول دائماً إلى محاضرة قيمة.

وتلك كانت خطته في قرن العلم بالعمل، من الوجهة الخلقية.

ولقد ضرب لنا مثلاً عملياً، من آثار دراسته الخلقية، فلم يفته المشاركة في الحرب البلقانية سنة ١٩١٢م بقلمه ولسانه ويده وماله، فكتب فيما كتب، أربع مقالات في جريدة «المؤبد»، بالعنوانات الآتية:

(١) عيد بأية حال عدت يا عيد؟ في ٧ من ذى الحجة سنة ١٣٣٠هـ.

(٢) رحمة لبقية سيف ونار! في ١٦ منه.

(٣) عطفاً أيها الأطباء! في ٢٢ منه.

(٤) هل للمهاجرين من أنصار؟ في ٢٩ منه.

وقد رأينا إضافتها لمذكرة الأخلاق، نتيجة عملية لم فيها من دروس أخلاقية، كما أنها دروس أدبية، ودروس وطنية، ودروس اجتماعية، ودروس دينية أولاً وأخيراً.

ونسأل الله الذي وفقه، أن يجزيه عن الإنسانية خير ما يجزى به عبداً من عباده المخلصين. آمين.

## عيد بأية حال عدت يا عيد

جاء عيد الأضحى، وكان إخواننا العثمانيون يأخذون له أهبتة، كما نأخذها نحن الآن؛ وتطلق في ديارهم المدافع بشراً بقدومه، وإيداناً بحلولة، كما تطلق عندنا. وها هم أولاء الآن، لا يعدون لهذا العيد شيئاً!

نعم أقول بحق، إخواننا في الإنسانية. ولئن رجعت هذه الأخوة إلى آدم - والعهد بعيد - فهم إخواننا في الدين، والدين أصل من أصول الجامعة البشرية. إهم أيضاً لإخواننا في الرحم القبية. أليس كثير منا يدخلون بيوتهم، فيتلقاهم في أزواجهم سيدات عثمانيات، وبنون منهم وبنات، ترقرق في وجوههم دماء عثمانية، كما ترقرق فيها دماء مصرية؟! خلط بعضنا ببعض طول الصحبة، ووحدة الدين، وامتزاج الدماء، فاكتملت فينا الأخوة. فإن كنا بحيث لا تستميلنا إليهم روابط الإنسانية، ولا تستفزنا أسباب الدين، ولا تعطفنا عليهم في بؤسهم أو اصر القراية، أصاب المقال في إحساسنا موضعاً!

بلى! إن العثمانيين أيضاً لينصبون لعيدهم أمارات، ولكنها في معناها ليست كأماراتنا! إن العثمانيين في هذا العيد تصنع لهم ثياب جديدة، ولكنها تصنع عصابات وأربطة لجرحاهم، وأكفاناً لقتلاهم، لولا أن الشهداء يكفنون في لباسهم، مخرجين بدمائهم الطاهرة! إن العثمانيين في هذا العيد لمتخذون علامات في لباسهم، ولكنها علامات حداد لا علامات زينة! إن إخوانكم العثمانيين لتراق في عيدهم أضاح في كما تريقون؛ ولكنهم ضحايا من رجالهم وأبطالهم في حماية الذمار! في مقابل الأضحى في مصر، تراق في هذا العيد الأكبر، بديار إخوانكم، دماء أبطال عثمانية، معصومة نقية،

تخضب بها أراضيهم وديارهم فى كل مكان! إن العثمانيين فى هذا العيد الأكبر، لىسمعون قصف المدافع ببلادهم، فوق ما تسمعون ببلاذكم؛ ولكنها لىست مدافع للبشر، والإيدان بحلول العيد! إنها مدافع تنساب منها النيران، لنهب نفوس أولئك الأبطال، وتأييم النساء، وتيتيم البنات - والحرب مائة مئمة - ونقض بناء الأسر، وتقويض صروح السعادة التى شادتها آمالهم وأعمالهم،، على تعاقب العصور الطويلة! إن العثمانيين فى هذا العيد لمجهزون أطعمة خاصة؛ بيد أنها أطعمة ملائمة لجرحاهم ومرضاهم! إن العثمانيين لمتحلون لهذا العيد مركبات، ولكن لا تسير بهم فى تحيات وتهان؛ إنها مركبات، أما بعضها فللمسير بهم إلى صف القتال، واقتحام مآزق الحرب، ومركبات أخرى يسلكون بها من بلادهم كل درب، فى شئون مصائبهم من كل ضرب! وأما سائرها فيرتحلونه فى سبل الجلاء عن أوطانهم وأموالهم وقومهم! فويل لأهل الأرض من تلظى نيران الحروب، وفعلها القاسى بالإنسان!! إن هذا العيد له ضجة فى كل دار عثمانية؛ ولكنهم أحوال النساء، وأنات المحزونين، وزفرات المنكوبين، لا هتاف صبيتهم بالسرور، كما كانوا يهتفون للعيد من قبل! وأى صبية يهتفون بالسرور، فى حجور أمهات معولات، وعمات باكيات، وخالات تصب العبرات، وقرابات كلها موجعات، وأنواع شتى من المصائب، إن تهاى للقلم ذكرها، طال عليه سردها!!

وما للعثمانيين والعثمانيات، إن لم يحالفوا صبراً لم تجر به العادة، لا يتابعون تسكاب الدموع، حتى يستنزفوا ماء الشئون، على آلاف مؤلفة من حماتهم، القوا - والعهد قريب - فى حفرهم، وآلاف مؤلفة، وجودون فى

العيد بأنفسهم، ومثلهم فى مزدحم الوغى عليه الطير ترقبهم وقوعاً؛ وآلاف الآلاف، أصيبوا بمصائب لا يأتى الإحصاء على بعضها؟! نفوس سالت على ظباة السيوف، وأبطال كرام صرعى الواجب، يكاد السهل والجبل يضيق دونهم، مجندلون على الغبراء، ممرغون فى التراب، ملطخون بالدماء، يعالجون سكرات الموت، عطاش يستسقون فى يسقون، ولا ينالون من هذا العالم إلا سنابك الخيل، نهاية شقوتهم فيه! وأسرى يطعمون فى عيدهم ألواناً من العذاب، تتاب صدورهم الوسواس والهموم! استولى عليهم الذعر والقلق! لا يدرون بكل ما يحل بهم وبقدرهم، وإن الشقى بسوء ظن مولع! وصنوف شتى من الجرحى: فمنهم من أخذت المدافع يديه ورجليه، ومنهم من بتر الرصاص منه بعض ذلك، ومنهم من كسر فكه، ومنهم من فقئت عينه، ومنهم من جدع أنفه، ومنهم ومنهم!! غضت بهم الديار، وضائق عليهم المستشفيات بما رحبت، وقرت معهم فيها حمى تستعر نارها، وأقام بهم فى مضاجعهم آلام كثيرة! وأطباء وممرضات على وفرتهم قليلة! ونيران وتحريق، يحصل كل شىء، ولا يبقى على شىء! ومخدرات وغير مخدرات شتى، وجماعات، وشيوخ وأطفال، يتململون فى الفاقة والحزن، ويشردهم من بلادهم الفزع الأكبر، وقد كانوا قبل ذلك مترفين! كانوا يرتعون فى بسطة من العيش والمسرة والأمن! ضعفوا إلا عند ندب قتلاهم، وبكاء أسراهم وجرحاهم، ومتابعة الزفرات على ديارهم، وما اشتملت عليه ديارهم! وبالجملة، أسرة كبيرة، وأمة أصيبت فى كل عزيز عليها، وأحدق الخطر بملكها، وزلزلوا زلزالاً شديداً!! تلکم، أيها القراء، صورة من تصرف الحرب، لا من تصرف الخيال والقلم!

أبعد هذا لا تدب فى صدورنا الرحمة، ولا يتمشى فى قلوبنا  
الحنان؟!؟

إن كنا مع هذه الذكرى لا نحطم مصايح العيد، ولا نلقى عن كواهلنا  
لباس الزينة فيه، ولا ندع مراكب التطواف فى الطرقات للتهانى، ولا، ولا،  
ولا، أفلا تكفى معالم العيد، لتذكيرنا بما يلقى إخواننا من الألم والبلاء،  
والبؤس والشقاء، فننفس عنهم من كربهم ولو... - إنى أساركم بالكلمة،  
لأنها كلمة تهمة لو نفع سرار فى صحيفة المؤيد - ولو... بضعف نفقات  
العيد؟؟؟!

توغر منا الصدور على نزلائنا من اليونانيين، فنسلقهم بالسنة حداد،  
على ما أثمرت صدورهم من الحمية، وما مالتوا إخوانهم بالنفس والمال! وهل  
كان نزلائنا اليونانيون فى عهد ما، أخلق بتقريطنا منهم الآن؟ ولكن من لنا  
بطبيعة غير البشرية، نقرظهم بها فى الظروف الحاضرة، على استقامة  
شعورهم، وبذل ما وجب من الحقوق فى أموالهم وأنفسهم، بذلاً بسمح؟!  
أولم تكن أنفسنا هذه التى بين جنوبنا أولى بثلبنا؟ بلى؛ لأن كثيرين منا  
تساهلوا فى حقوق الإخاء، على حين تأكد الحاجة إلى قضاء حقوق  
الإخاء؟

إن قعدنا عن ممالأة العثمانيين، الذين يذبون عن حياضهم، ويخرون فى  
املاحم صرعى، دون شرفهم، وديارهم، أنفسهم، أفليس من الخذلان قعودنا  
عن إواننا العثمانيين الجرحى، وإخواننا العثمانيين المتدهورين، فى العسرة  
والبؤس؟! بلى؛ وإه لقبيح منا جفاء لقوم نحن أولى أهل الأرض بهم، وهذا  
موضع الرحمة! إنه لقبيح بنا أن نلقى بأعمالنا، فى وسط أسرنا، على مشاعر

أبنائنا، درساً من القسوة، نفسد بمثله عليهم شعورهم، ونمسخ فيهم فطرتهم،  
إن أغضينا عن الجهات الأخرى!

ومن اختانته منا عاطفة الخير في المصائب الملمة، فليشعر قلبه تلك  
العاطفة!! ومن لم يستطع فليقتصر نفسه على عمل الرحماء، فإننا لن لم نسأل  
عن عواطف لم نجتليها على أنفسنا، فلا يفوتنا السؤال في سائر الأحوال عن  
أعمالنا! ألا وإن مصرع المرء في استسلامه لكل ميل! ألا وإن حتف الفتى في  
عبادة هواه! فلنحل الحكمة من أنفسنا محل ما استعصى علينا من خلال  
الخير، والحر الكريم يرقع حقاً عليه بما له، ولا يرقع مالا له بحق عليه!!

لا نبت ليالى العيد في ألم التخمة، وإخواننا في ألم المخمصة!!  
لا نبت مسرورين بما حولنا، وإواننا محرومين بما منوا به! لا نبت في  
يسار ونعيم، وإخواننا في عسرة وجحيم! لننفق مما أعطانا الله!!  
وإن سخط علينا إحساننا، فسيرضى الحق! من يوق شح نفسه فأولئك  
هم المفلحون!

وبعد، فهذه عشرة جنيهاً، أهديها لإخوانى الجرحى، فى عيدهم هذا  
الأكبر فإن ضاق منى اليسار عن أكثر منها، رجوت منى الشعور للعطف  
عليهم، والتوجع لهم، والله تعالى أسأل حسن الغاية، وإليه المصير. ع. ز.  
(المؤيد) وقد سلم حضرة الكاتب الفاضل، المبلغ الذى ذكره فى مقالته  
إلى صندوق جمعية الهلال الأحمر. ونحن نشكر لحضرتة عواطفه الشريفة،  
وجهاده بماله وبقلمه. أجزل الله له المثوبة والأجر.

## رحمة لبقية سيف ونار!

المستشفيات العثمانية، وبعض الدور والطرقات، ينساب عليها مطر من فوقها، حافلة بجرحى العثمانيين! ضعاف، موقرون بالآلام، متكفون بالأخطار، فى موضع غوث ورحمة، طالما قاموا الليالى فى جهاد الأعداء، ناصيين حذرين، لينام الناس فى راحة وأمن! لبثوا هنالك فى تلك المواضع، مواضع القتال، أمام العدو، لىالى وأياماً غير آمنين! إن رقدوا رقدوا على قلة زاد، خماص البطون، يتمهدون الغبراء، ويلتحفون السماء؛ وإن هبوا هبوا على قلة عدد لقتل وأسر! فهم فى حالهم كالمستجير من الرمضاء بالنار! ظلوا كذلك، حتى صرعتهم نار الأعداء، فانكبوا على وجوههم يتخبطون فى دمائهم!

على عجالات الحرب الخشنة، لا على مركبات الركوب الوثيرة، حمل أولئك الجرحى، بقايا السيف والنار، إلى المستشفيات، حتى ضاقت دونهم، فألى بعض الدور والطرقات! ولم تبح لهم الحرب أن يحملوا عليها برفق ينبغى لمريض مثلهم، إلا كما يرفق بالمتاع لا يخشى عليه، ينبذ فى سفينة! تسير بهم العجل إلى المستشفيات على عجل، تتسلق بهم الحزون، كما تهبط بهم إلى السهول، ونار الحمى تتفجر فيهم من باطنهم، والبرد يغشاهم ويؤذيههم فى جروحهم، والسماء تأخذهم من فوقهم! فمنهم من تستنزف على العلجات دماؤهم، فتفيض نفوسهم. ومنهم من يبقى حياً؛ للتراب الذى قلبهم فيه الألم بمصارعهم، والماء الذى صبته عليهم السماء، أثرٌ فى لباسهم، وللهواء البارد أثر فى أطرافهم وجراحهم، وللنار التى صلتهم بها الأعداء، أثر

فى أجسامهم! كأنما عناصر الطبيعة التى تبدو أحياناً، لتصرفها، كجبار قاس، تألبت على هؤلاء الجند المساكين! فما أشأم طلعة الحرب على الجيش العثمانى، وقد أخذته على غرة! وما أشأم الحرب على العالم أجمع، ما تعاقبت الأيام! قطع بهؤلاء الجرحى شقة بعيدة، تسيل منهم الدماء، وتبكى عليهم بدموعها السماء، حتى انتهوا إلى تلك المضاجع، وهنالكم أصابوا راحتهم! وأنى لمثلهم راحة، وهذه جراح كثير منهم دامية، حشوها رصاص الأعداء، لا الخرق والدواء؟! وهذه مضاجعهم، فى كثير من أمورها غير صالحة. طرحوا بعد أن فرغ منهم الأطباء، قد غاصت بهم بقية قواهم، وفاضت فيهم الآلام بين يدى الممرضين والمرضات، تحميهم من الذباب، وقد كانوا بالأمس حراس الديار، وحماة الذمار! وتجرعهم الشراب، وقد كانوا قبل ذلك يجرعون من ناوأ بلادهم، الموت الزؤام! فعطفاً أيها الأقوياء، على هؤلاء الضعفاء! حناناً يا صحاح السلم، على مرضى الحرب!!

لو اطلعت عليهم، لرأيت الحديد والرصاص، حالفا النار على التنكيل بهم وتشويه صورهم! تتخلل مراقدهم: فهذه ذراع برزت فوق الغطاء، مشدودة فى مكان أصابع ففتها الرصاص! وذراع ثانية، مربوطة فى موضع كتف أبيت! وتلك عضر بترت ذراعها، وشدت عليها الأربطة! أو بقية قليلة من عضد! وتيك رجل انزاح عنها الغطاء، فبدت على بقيتها الأربطة! وقد ذهب صابعها، أو قدمها، أو ساقها! وهذا جريح عليه عصابة عظيمة، شدت منه على فك منكسر! وبجانبه جريح آخر، عصبت جبهته على دهان تحتها! وثم ثالث، وضعت منه الخرق على عينين، أشرفتا على العمى! ومنهم من جمع فى موضعين من جسمه، أو مواضع، بين رباطين أو أكثر! وهم

كذلك شتى فى ضجعتهم : فمنهم راقد على جنبه الأيمن ، لا تقدره جراحه أن يرقد إلا عليه ! ومنهم مضطجع على جنبه الأيسر ! وبعضهم مستقلق على ظهره ! وآخرون مسندون إلى شىء ، يقطعون الليل والنهار ، قعوداً لا يرقدون ! هذا والآلام سارية ، والأوجه منزوية ، وأساريرها تشف عن ألم شديد ! وأنين المرضى وتأوههم ، تلين له القلوب القاسية ! يستغيث بعضهم بالطبيب مما أثقلت جراحه ، وبعضهم يستعين بالمرضىين والمرضات ، على أمر عرض فيه على رباطه ، أو عصابته أو دوائه ! ويحضر كثيراً منهم الموت ، ونار اللهفة على ولده وأهله تحرقه ؛ لولا أن الموت الذى تبرد له الأجسام ، أحمد فى ذلك الهيكل كل نار ، وأطفأ فيه كل حرارة ! نعم ، وتلك المستشفيات ينقصها الموت ، وتمدها النار والسيف ، كأنما هى خزائن الهلال الأحمر ، ينقصها الإنفاق على هؤلاء الجرحى ، ويمدها الراحمون ! والراحمون يرحمهم الرحمن ! ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء !

يغلب على الجريح منهم ألمه ، وتسبح به الحمى فى بحر من الأوهام ! فإذا هدأت فى جسمه نائرة ذلك ، ثارت فى نفسه آلام كثيرة : فألم لذهاب أمله سائر حياته - وقد قطع منه عضو أو أعضاء - وصيرورته عيالاً على غيره ، بعد أن كان الناس كلهم عيالاً عليه ! وإن كان من بلد استولى عليه الأعداء ، أو حرقوه ، أو خربوه - وما أكثر هذا فى الحرب - أقلقته الوسواس والهموم ، فى أمر أهله ، وما صاروا إليه ! هذا إلى ما هو فيه من القلق على قومه ! فأف لتصاريف الليالى ما أقساها ! لقد كاتت السعادة لهذا الشقى ، لو أصابت مصرعه ، ثم فى ساحة الوغى ، وأخذته حوافر الخيل ، وتجاذبتة الذئاب الكواسر ، فى تلکم الفجاج المترامية ! حقاً ! بيد أنه أشقى من أن يموت !!

عاش هذا الجريح الشقى قبل اليوم، برهة من الزمان، فى غبطة، ممتعاً بقواه، مُعافى فى بدنه، آمناً فى سربه، قريح عينه بماله وولده، وجفن الدهر عنه غضيض. ثم تقلصت عنه فى لحظة واحدة، ظلال تلك النعم، كأنما كانت مصابيح شتى من الكهرباء، توقد من زر واحد، فلوته بسرعة يد الدهر، التى تلوى كل شىء مسته، فاحتجب عنه ضوءها الساطع، وتركه فى ظلمة أسود من حلك الغراب، يظل نهاره يهذى بأهله وقومه، ولا سيما جريح الأمس، قبل أن تبدو تباشير الأمل؛ وإذا خر عليه الليل، بات يهذى بجرحه، وإذا فتر عنه لحظة ألم هذا وذاك، صار يهذى بتصرم أمله!!

فحناناً وعطفاً، أيها الرحماء، على هذا الجندى الجريح، المتصل الآلام، المنقطع الآمال! فإنه بقية عسكر ماتوا لحياتكم، أو حياة إخوانهم وإخوانكم، ومثله خليف بإنسانيتكم وثمرات رحمتكم!!

إنى لا أجد فى الجماعات أحداً أجدر بمؤازرتهم، من جندى جريح فيهم! لأنه إن يكن قد وقع عليه الاختيار قسراً من بين الجماعة للقتال دونهم، فهو من لباسه، فى قميص عثمان ملطخاً بدمه! وإن كان متطوعاً، بذل دم لقومه، فهو شريف محسن! ومن ذا الذى هو أولى بمعونة قومه، من رجل: إما مظلوم مضرج بدمه، وإما شريف محسن به إليهم؟! أما إذا كانت الجماعة أكرهته على الجهاد دونهم بحق، فهو امرؤ قد احتتمل واجباً خطيراً، نيط أداؤه بسفك دمه، وقد سفكه!

عطفاً، أيها المصريون، على هذا الجندى المسكين! فقد فاجأ الأعداء فيه أهله الأذنين، على غرة فى أمره، فلم يجدوا بداً من تقديمه، على غير أهبة كاملة، لسفك دمه! وهذا مبلغ ما يستطيع أباة، فاتهم، لبعض الدواعى، أخذ

الأهبة لأعدائهم كل الأخذ! قتله الجوع فى الحرب مرة، وقتله البرد مرة أخرى، وقتلته نار الأعداء مرة ثالثة! ولكنه بعد هذه القتلات غلبت عليه شقوته، فبقى فيه رمق يذوق به العذاب، فأبقوا على رmqه! أمسكوا عليه حياته، بمده بالمال، فأنتم عثمانيون، أو لا، فأنتم أولى الناس بجرحى العثمانيين، الذين تشغلهم الحرب عن كل شىء!

ماذا يكون حال هذا المسكين، إذا لم توالوا مده بالمال، فيجد له غذاء، ووظء، وغطاء، فى برد هنالك قارس، وطبيباً يضمّد جراحه، وممرضاً يعينه على شئون عليل مثله؟! أصبح يسألكم بلسان حاله، أن تعيروه من قوتكم، بعد أن كان يمدكم أتم وإخوانكم بقوته، والدهر بالناس قُلب! على أن فى العطف على الجندى العثماني، وتضميد جراحه وسلامته، طاعة لأمر الله فيه، وصلة لإخوانكم، وخيراً كثيراً لكم ولأعقابكم! قدموا لهؤلاء الجرحى دربهما! قولوا لهم بها: إن أمتكم، ولا ننكر أننا منها، كلا أو بعضاً، شاكراً لأفرادها، الذين يريقون دماءهم فى سبيل سعادتها، عاطفة عليهم!

قدموا للجرحى من أموالكم! قولوا بها: إن جمعنا على أهبة لبذل ما يملك، فى معونة العاملين لصلاحه، لا نضيع عمل عامل منكم!

قدموا للجرحى من أموالكم! قولوا بها: إن مثلنا، فى تراحمنا، وتوادنا، وتعاطفنا، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى!

قدموا للجرحى قليلاً من أموالكم! قولوا بها للعثمانيين: نحن إخوان الشدة، كما كنا إخوان الرخاء! وشدوا أزرهم، وقووا عزائمهم، وعزّوهم على ما خسروا من رجالهم، ولا يذهب العرف بين الله والناس!

قدموا للجرحى ، يشيد المصرى بهذا التقديم، فى بناء التراحم والتعاون،  
وجامعة الحياة، وحياة الجامعة!

قدموا أيها الموفرون، فى قوتهم، وأعضائهم، وأهليهم، وأموالهم، لمن  
فاتهم جميع ذلك!

قدموا قبل ألا تقدموا! وما تقدموا لأنفسكم من خير، تجدوه عند الله  
هو خيراً وأعظم أجراً!

وهذه عشرة جنيهاً، مقدمة للجرحى، جمعت لهم أيام العيد، وليس  
لى فيها إلا نحو خمسة وثلاثين قرشاً! منها نحو مائة وثلاثين، تكرم بها  
المصلون فى جامع لاشين السيفى، بشارع مراسينه بالسيدة، بعد أن حثهم  
حضرة خطيبهم الفاضل، الشيخ محمد أحمد أبو طالب، وجنيه سلمه إلى  
حضرة الفاضل، الشيخ أحمد إبراهيم، مأذون الشرع الشريف هناك، قيمة ما  
جاد به بعض أهل الخير من تلك الجهة. وسائرهما دفعها إلى بعض أقربائى  
وإخوانى. شكر الله لهم أجمعين.

ع . ز

(المؤيد) وقد سلم حضرة الفاضل، كاتب الرسالة، المبلغ الذى أشار إليه  
فى رسالته، إلى صندوق جمعية الهلال الأحمر. شكر الله سعيه. والساعى  
إلى الخير كفاعله.

## عطفًا أيها الأطباء!

ليس فى الحياة أشق من ألم جثمانى شديد! قضية يلفظها السمع، ولكنها فيما أظن صادقة! فألم النار أشد من كل ألم نفسى! والمرء على احتمال الأول، أضعف منه على احتمال الثانى! ولا سعادة يشعر بها الحى، أعظم من دفع هذه الآلام! ودفعها من عمل الأطباء الذى يؤدونه للاجتماع البشرى. فللأطباء، على الناس، فى سعادتهم، أياد بيضاء، يبذلونها بئس بخس. والمريض لو لم يجد طبيباً إلا بجميع ماله لبذله له، وعد نفسه من بعد، سعيداً ممتعاً بعيشه. وإلا فمن يشعر بشيء من سعادة، إذا كان بين خزائن الأموال، ولكنه مثقل بالأمراض، منغص بالآلام، إلا من كان فى إحساسه غريباً من الناس؟! وعلى الجملة، ليس فى المعاوضات صفقة، أنفـس مبيعاً، وأقل ثمنًا، من صفقة تجرى بين طبيب ومريض وإلا فلا أقل من أن صفقة الطبيب مع المريض، تحسب بين تلك الصفقات.

هل أدلكم أيها الأطباء المصريون، على عمل حاضر، يضاعف لكم فى الأجر، أضعافاً مضاعفة؟

هل أدلكم على عمل حاضر، تطلقون به السنة قومكم بشكركم، وإن كانوا يحفظون لكم الجميل من قبل؟

هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم، يوم الدين، وتسير بكم شوطاً بعيداً فى سبيل الرقى، والسعادة الأبدية؟!

تلبون نداء الهلال الأحمر، ويرحل جماعة منكم، كما نفر بعضكم من

قبل، إلى الاستانة، في أداء واجب عليكم، وعلى أمتكم لإخوانكم  
العثمانيين، موفين أجوركم الجزيلة من الله تعالى.

يا حضرات الأطباء! أحقًا تقعدون عن واجب أخوى، ألقى على كاهل  
كل منكم، كما ألقى على كاهل أمتكم، من حيث إنكم جزء من أمتكم،  
حتى احتاجت جمعية الهلال الأحمر، أن تستفزكم بالقول، إلى هذا  
الواجب؟!

إنكم لتعلمون أن في رحلتكم إلى الاستانة، في مداواة الجرحى  
والمصابين، برًا بأنفسكم؛ وبرًا بجمعية الهلال الأحمر، القائمة بعمل من  
أشرف الأعمال الإنسانية؛ وبرًا بأمتكم، التي بعض واجبيها رحلتكم؛ وبرًا  
بالعثمانيين إخوانكم؛ وبرًا بالإنسانية! فحق عليكم إجابة هذه الدواعي كلها،  
إذا لم يكن ثم ما يمنعكم!

يا حضرات الأطباء! إن المريض المعذب هنالك، يتململ على فراش  
الألم، ويساوره الموت، لهو أخوكم! وإن النساء التي استهدفن الشقاء، لهن  
أخواتكم، والأطفال الذين تفترسهم المنية نائين عن آباء جرحى، أو قتلى، أو  
أسرى، وفي حجور أمهات، بائسات، مهاجرات، من ديارهن وأموالهن،  
أبناءؤكم وبناتكم! فحنانًا لهؤلاء ورحمة! إن لم يسر إلى أسماعكم صريخ  
هؤلاء الذين يكبكبون في نار الآلام الشديدة - وهل النار إلا الآلام الشديدة  
- فقد ملأ السمع من طرق شتى ما هم فيه!

أليس مثلكم، إن لم تحيوا نداء الهلال الأحمر، كمثل ملاح هوت  
أسرته في غدير وهو على شفا الغدير؛ يستغيثون به مما هم فيه، ويمدون إليه  
أيديهم، ليأخذ بها، وهو يلوى عنهم، حتى هلكوا على مشهد منه؟! نعم

كمثل ملاح، لأنه لا يعسر على الملاح أن يسبح في غدیر، كما لا يضرکم أن تباشروا عملکم فی الاستانة، بعيداً عن مواقع الحرب! بيد أن الجرحى والمصابين الذين تُدعون لإغاثتهم، يطول عذابهم إن لم تغثوهم! أما أسرة الملاح فتزهق أرواحهم في الغدير بسرعة.

يا حضرات الأطباء! إن الإنسان الشفيق، لا يألوا جهداً أن يلتقط من الماء حيواناً أشرف على الغرق! أفلا ترثون أنتم لإخوانكم وأبنائكم؟!  
إنى أسألكم، بإنسانيتكم، إلا ما أيقظتم في قلوبكم عوامل الحنان، التي ثارت في فؤاد ذلك الزارع الألماني، فأنجي أسرة فقيرة، أشرفت على الغرق!!

ففي ذات سنة، في فصل الربيع، فاض نهر (اتسن) حتى هدم القناطر، وغطى كثيراً من الأراضي. وكان في بعض جهات النهر قنطرة عتيقة، في أحد جانبيها كوخ مكاس، فذهب بها الفيضان، ولم يبق منها إلا ذلك الجانب، وفوقه الكوخ، والماء يلح عليهما، ويتهددهما كل لحظة، بالتهامهما. فوقف أهل الكوخ وسط الماء، في بهرة الموت، يستغيثون، والناس على الشاطئ لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً؛ حتى الملاحون خافوا على أنفسهم، أن يلقوا بها في ذلك التيار الجارف. ولم يغن شيئاً أن كان بين الواقفين عظيم من أهل اليسار يسوق الناس بالمال الجزيل، لإغاثة هؤلاء المنكوبين. وإنهم كذلك، إذا بزاع من عرض البر مقبل عليهم. فلما رأى ما فيه الناس، لم ينشب أن رمى بنفسه في زورق واقتحم به اللجة، وسار به يساور التيار، ويشق الجمد، حتى بلغ الكوخ، بمعونة الله، فاستل أسرة المكاس من الخطر، وأنزلها في الزورق، ورجع بها إلى الشاطئ بسلام. فلهج

الشاطيء كله بحمد ذلك الفلاح المقدام، ولم يكن إلا أن وضع بهم قدمه على الساحل، حتى انهيار ركن القنطرة، وهوى الكوخ فى الماء.

هذا وقد مد ذلك الموسر العظيم يده إلى الزارع، بكيس مفعم بالنضار، قائلاً له: خذ هذا المال مكافأة لك. فقال له الفلاح: معذرة يا سيدى! إننى لم أعرض حياتى للخطر طمعاً فى مال! وإذا أراد سيدى إكرامى بشيء منه، فليذله للمكاس، فقد أتى الماء على ماله. وأخذ على طريقه، ولم يعقب لسماع كلمة شكر!

كونوا أيها الأطباء الكرام، مظهرًا لرحمة الله بأولئك العثمانيين، الجرحى والمصابين، ورسلاً من الرحمن الرحيم، لتخليصهم مما هم فيه!

كونوا رسل الإنسانية، وأخص صفات الإنسانية الرحمة!

كونوا نواب قومكم المصريين، فى معونة العثمانيين والعثمانيين، واسعوا جهدكم فى خلاصهم من هذه الشدة!

يا حضرات الأطباء! هذه أمتكم نهض موسروها نهضة يشكرون عليها، فى شفاء الحاجة من جسم الأمة العثمانية، وإن كانت الآمال لم تزل بعد منوطة بزيادة نهضتهم! فهل لأطبائنا الكرام، أن ينهضوا، جهدهم، فى شفاء المرضى من جسمها؟! وإلا فىا ليت شعرى: ما عسى يفيد الدواء الحاضر، والطبيب غائب، وقد صارت النوبة فى نهضة الأمة على معارفكم؟!!

أيها الأطباء المحترمون! إن لم يجر على يد أمتكم إرسال جند منها إلى تركية، ليشاركوا فى إراقة الدماء البشرية، التى دفعت، على قسر، إليها - والضرورات تبيح المحظورات - لم يفتها برحلتهم مد العثمانيين منكم بجيش،

لإرقاء الدماء، وتأييد السلام! أليس مثل طبيب لا يسافر على قدرة لغوثهم، كمثمل ملء يمك في هذا الوقت ماله، لا يرعى فى ماله حق الله ولا حق الناس، ولا يحقق فى شخصه رجاء قومه؟! أليس مثل الأمة فى أمر معونة الدولة العثمانية، إن قعدتم عن مشاركتها، وبكم خصوصاً مناط حاجة إخوانكم العثمانيين من وجه، كآلة بخارية بلا وقود؟! أو كمدرس ضعيف الذكر، قدم لدرس بلا مذكرات؟! أو عين ذهب لاستطلاع جيش بلا عين؟! أو كرجل أراد ممالأة آخر على كتابة شىء، فدحست أصابعه أو رمدت عينه؟! غير أن الفرق بين عين رمدت، وطبيب تخلف عن السفر، عظيم جداً! أما العين فترمد قسراً، وأما الطبيب فرمد اختياراً! هذا إذا قعدتم عن السفر بلا عذر، وما أخالكم!

لبوا، يا حضرات أطبائنا، نداء الهلال الأحمر، تناولوا بذلكم، أنتم وأعقابكم، فخرًا! ولأن يرث أعقاب الأطباء مذكرات لهم، فيها حديث رحلتهم إلى الديار العثمانية، لمعالجة إخوانهم، وقت الحرب والوباء، خير مما يجمعون! ولا سيما من كانت رحلتهم مجانًا! وما يبقى من الثناء الجميل، والمنزلة العلية، خير من ذلك، وما عند الله خير وأبقى!

يا حضرات الأطباء! إن الطبقات الأخرى، إذا عرضت لجمعية الهلال حاجة لديهم، بادروا إلى أدائها بلا أجر، إلا ما يرجونه من الله تعالى؟ ذلك بأنهم يعلمون أن هذه الجمعية - ولها من القلوب مكانة، ومن الألسنة حمد - إنما تعمل ناصبة، فى طاعة الله وحب الخير! أتقعدون - بلا عذر - وأنتم من علية القوم وبكم أنتم يناط عملها، عن مؤازرتها فى معالجة الجرحى والمرضى، من إخوانكم، لا يظن قعودكم بلا سبب صحيح!

هل على حضرات الأطباء من حرج، إذا اجتمعوا وتشاوروا في أمر سفرهم، وجعلوا الرحلة مناوبة فيما بينهم، حتى ينتهي أمد الحاجة؟ والله تعالى يكشف قريباً عن الديار العثمانية، تلك الظلمات المتركمة في جوها، ويرجع به إلى الصفاء!

لا يخلدناكم إلى مصر بعيداً عن هذا الواجب، أن يقال: كيف تسافرون إلى بلاد الحرب، ولا تعلق ولد بكم، ولا بكاء أهل، وإن كانت هذه الأمور من شأنها أن تخلد، فمن الحزم أن يكون المرء ماضياً في سبيل الواجب!

عبد الملك بن مروان، لما أراد السفر للغزو بنفسه، تضرعت إليه زوجته عتكة، بنت يزيد، تسأله البقاء، وقد كانت حظية عنده. فلما أبى عليها، وعزم على السفر، بكت وبكى معها جواريتها، فتمثل بقول ابن أبي ربيعة:

إذا ما أراد الغزو لم يثن همه      حصان، عليها نظم در يزينها  
نهته فلما لم تر النهى عاقه،      بكت، فبكى مما دهاها قطينها  
سافروا تغنموا.

ع . ز

وأضع مع كلماتي هذه مائة وخمسين قرشاً في صندوق الهلال الأحمر، جاد بها على المرضى، بعض الأخيار، أجزل الله لهم المثوبة.

## هل للمهاجرين من أنصار؟!

كأنى بالبلاد العثمانية، التي استولى عليها الأعداء، وأحلوا لأنفسهم، من أعراضها ودمائها وأقدامها، ما لا يحل؛ والتي باتت تتوقع غارتهم، والتي دمرتها نارهم - وهي كثيرة - غادرها أهلها مسرعين! وخرجوا منها خائفين مترقبين! يسيرون عنها خطوة! ويعطفون عليها بنظرة فظرة! ولولا خوفهم طلعة العدو عليهم، لوقفوا بالأطلال كثيراً؛ حتى نقعوا بالوداع غليلاً!

وكيف لا يقفون طويلاً، لتوديع تلك الديار، وهو آخر العقد بمعاهد ألفوها؟ وبلاد اختطوها؟ انتظم بها شملهم، وغنى أترابهم، وأقام أصحابهم، واتصلت أنسابهم ونبت خالفهم وحُصد سالفهم؟! أليست سلامة هذه المعانى، فى سلامة المعانى! أجسامهم عجينة من تربتها ومائها، وأمزجتهم مشواة بحرها وبردها وهوائها، فلو رد الله التراب هنالك رجالاً لجاءوا على شكلهم! أمهم واحدة، وهى هذه الأرض التى يكرهون على الهجرة منها، وأبوهم واحد، وهو ماء أنهارها وغدرانها! فأين يجد أحدهم من بلده بدلا، وقد بدد الدهر شملهم، وفرط عقدهم، ورمى بكل خريزة فى مكان؟! رفقاؤها أياها الدهر العنيف، بالمهاجر الضعيف، فكبيره، من قبل، بين يديك صغير، وعظيمه حقير، وعزيزه ذليل، ورفيعه وضعيع، والقدرة تذهب الحفيظة!!

كيف لا تقف الأسرة لتذراف الشئون، وقد رزئت فى مقرها الذى شادته؟ دمرت النار دارها التى بنتها، وشيدتها ونجدتها، وارتبط بكل بقعة منها حديث من تاريخها، وذكرى من ماضى آبائها وأجدادها، ونيط بكل مكان منها أمل لمستقبلها؛ حتى كأنما هى الدار صحف لتاريخ الأسرة،

ومجموع آمال؟! دمرتها فأصبح عاليها سافلها، وأحالتها إلى جدث عظيم،  
انبسط على غير نظام، وقام على غير هندام، توارت فيه تلك الآمال الكثيرة،  
وغابت الصحف!

كيف لا يودعون أوطانهم، ما استطاعوا؟ وهذه أرضهم وعقارهم،  
ومزارعهم وجناتهم، وهذا طريفهم وتليدهم، وما عملت أيديهم لهمهم،  
وعقبهم من بعدهم؟! قد سلط عليهم فيه عدوان قاسيان: فعدو من النار،  
وعدو من البلغار؟ انتزعوا منهم ما حازت أيديهم، وأجلوهم عنه بسرعة،  
ولم يسمح لهم بموقف وداع، يرخون فيه للعبرات أعتتها، لعل انحدار الدمع  
يعقب راحة!

بل كيف لا يقفون، ما استطاعوا، موقف العبرات، أو تذهب أنفسهم  
حسرات؟! وهؤلاء كثيرون من أبنائهم وإخوتهم وإخوانهم، الذين وقعوا في  
الدفاع عنهم، تركوا طعمة للنار، تحت دورهم المتهدمة - ويالله كم عزيز  
عليهم غاب في تلك الأنقاض - وآخرون منهم، تركوا طعاما للذئب  
والطير!؟

غادر هؤلاء المهاجرون أوطانهم، تحمل منهم الأرض محزونين، لو أن  
جماداً رثى لإنسان قبلهم على كثرة هم، لرثت لهم تلك الفلوات! سروا تحت  
الليل، يروعهم الفرع، فعل مهاجرين يتأثرهم عدو، موقرون بأسباب المنية،  
غرثى إلا من بغض العثماني وحب الانتقام.

احتشهم الليل فاحتشوا، وحدا بهم الفرار فجدوا. مهلا أيها الحادى بشيخ  
كبير، وطفل صغير! ورفقاً بالقوارير! لمست منهم الأرض الغليظة قدم  
المخدرات، وأقلت سادة كانت تقلهم العربات، وساخت في الطين أرجل

كانت تسوخ فى فرش وثير، من سندس وحرير! ينال منهم الجهد، كما ينال منهم البرد، فترعش أجسامهم، وتحمّر أنوفهم وأذانهم، وتألّم أيديهم حتى يذهب حسها، ويبطل أو يكاد عملها! يعثرون فى الليل فينكبون على وجوههم، فينهض الصبى من عثرته، باكياً يخافت بصوته، وقد علّمته أمه ألا يرفع صوته بالبكاء، كى لا يسمع الأعداء! فتناوله بيد مرتعشة، وتضمه منها إلى صدر محشو بأنواع الهموم، وتنسكب دموعها فوقه تحناناً عليه! فلو أحس مقررور فلاة بدفء لدمع غزير ينساب عليه، لذهب عن الصبى ألم البرد! كان بعض هؤلاء المهاجرين بعد نصب شديد، أخلدوا إلى الأرض لا يستطيعون مضياً. فمنهم من أثقله البرد، ومنهم من تورمت قدماه، بل منهم من انتهى به ذلك إلى مرض شديد، والمرض يأتى بلا رعاية حال، كزائر قليل الذوق يلم فى غير وقت! يهلك بعض هؤلاء، ويحيا بعض آخر، بما يرسل الله إليه من رحمة، لا يتسرب إلى طرفها خيال ولا تحيط بها تجربة!

تفرق هؤلاء المهاجرون فى غاياتهم فرقا شتى، وبعضهم قصد إلى السفن، يؤمون بلاداً ثانية، وقصد بعضهم إلى الاستانة وغيرها من البلاد العثمانية، فانتشروا بها فى مواضع شتى.

قصدوا إلى السفن، وليسوا بسياح، لا ولا لإيلافهم رحلة الشتاء، بل فراراً من الشقاء، الذى أصيبوا به فى مواطنهم! شرى كثير منهم مقاعد فى الدرجة الثالثة، وكانوا يغمضون فى شراء هذه المقاعد لتبعهم! وجلسوا بالأرض بجانب الطريق، على مقربة من آلة البخار، وقبل اليوم كانوا يتكئون على الأرائك، وتضرب دونهم الأستار! يمر بينهم الملاحون وخدم السفن، وفيهم مخدرات، لم يكن يسألن إلا من وراء حجاب! ترى السيد والسيدة -

تعرف فى وجوههم نضرة النعيم - مع سواد الناس فى مجلس واحد،  
فتخالهم - لولا أنهم عثمانيون لا عرب - بقايا من أمراء الإسلام الأولين،  
جالسين إلى العامة! أو تحسبهم سادة متواضعين، جاءوا من درجاتهم،  
وجلسوا فى بعض الشئون مع أتباعهم! وما هى جلسة تواضع، ولكنه الدهر  
الذى لا يتعاصى عليه وضع رفيع، حطهم! بدت الفاقة فى كثير منهم، فقام  
بعضهم يسأل أجرة لبقية طريقه، وآخرون يسألون حاجات آخر! لا تلحفن فى  
المسألة أيها المظلوم الظالم! فأكثر من تلتمس معونتهم، فى حاجة إلى المعاونة!  
ولولا اعتصامهم بالحياء، وشعورهم أن المسألة أخف مواقف العبد، لتصدوا  
للسؤال كما تصديت!!

وجاء منهم عدد لا يحصى إلى الاستانة وغيرها، من المدن والقرى،  
يتلمسون ناصرًا من الإنسان! لا يقصدون مسمى معينًا، ولا يتطلبون شخصًا  
خاصًا! وجهتهم الإنسان الرحيم، عثمانياً أو غير عثمانى، يساعدهم على  
تصريف الأيام!

امتأ بهم المساجد، يعكفون عليها الليل والنهار، لا يفارقونها إلا  
لحاجاتهم، وما هم بمعتكفين! صوام لا يطعمون يومهم، وليسوا بصائمين!  
تتجافى جنوبهم عن المضاجع؛ ذلك بأن فرشهم وأغطيتهم قليلة، على شدة  
البرد! وأجوافهم خالية من ألوان الطعام، ممتلئة من ألوان الشقاء! ودوا لو  
كانت همومهم الكثيرة أزواداً وفرشاً وأغطية، كما يودون لو كانت أغطيتهم  
وفرشهم وأزوادهم القليلة هموما!!

وامتأ بهم التكايا، وما هم من الناس بطلاب عرف، فتجهم لهم بعض  
قُطانها، وتبرموا بهم! ويا ليت شعرى: هل يجدون فى التكايا راحة، بعد أن

كانوا فى سعة كقطع الشطرنج على رقعته، فأصبحوا بازدحام التكايا، كتلك القطع قد طويت وجمعت فى الصندوق؟ فوارحمتا للمهاجرين!!

بلغت بهم الحاجة إلى بعض البيوت؛ فأما الأختيار من أصحابها فأكرموا وفادة من وسع رحابهم، وأما القساة فضنوا بقرى أو مبيت، أو كلمة لينة، واستوثقوا من رتاج الباب والدار!

بقى منهم بعد ذلك فى المدن والقرى خلق كثير، ليس لهم ملجأ إلا ساحاتها، وإلا طرقها؛ فاستولى عليهم الجوع والبرد، وعدم الراحة فى شىء، فانتشرت فيهم المراض، وفتك بهم الوباء! فكأنى بالشوارع لا ترقأ فيها دموع الحزن، ولا زفرات البرد، ولا ضيق الحاجة! أسمع من تلك الشوارع والساحات - لو سمع منها من بمصر - صراخ وليدة من الجوع، أو صبى من البرد، فتحنو عليه أمه، وتخلع لها ملابسها القليلة، ثوبا تلففه به، وتضمه إلى صدر محزون، فيشتد البرد على هذه الأم الرحيمة، فتمرض أو تموت، والصبى فى حضنها، ويدها قابضة عليه! أرى بناظر من الخبر، وناظر من الخيال، شوارع الاستانة، وبعض البلاد العثمانية، كثرت فيها الجنائز والنعوش، تحمل آباء وأمهات، تركوا من خلفهم ذرية ضعفاء، غرباء، ليس لهم من يكفلهم! تلك الشوارع والساحات - وهى اليوم مهبط لأحزان الإنسان ومنتزل لضروب شقائه - إذا جن ليلها، جن من المهاجرين، على آباء محزونين، وصبية يتضورون من الجوع، ويألمون من البرد، وأمهات موجعات، باكيات بائسات، يائسات إلا من رحمة يثيرها الله فى قلب امرئ خير! أتجد تلك الأمهات المحزونات، اللاتى كثير منهن مرضى فى المستشفيات، أنصاراً لهن فينا؟!

هل يجدون فى مصر، كتاباً خيرين، إن لم يكن بأيديهم مال ينصرونهن به، فإن بها أقلاماً يثيرون بها عواطف المحسنين؟!!

هل يجدن معلمين، يحرصون على أن يكون من قلوبهم قُدى لقلوب تلاميذهم، كما أن ألسنتهم قُدى لألسنتهم، فينصرونهن بفضل ما فى أيديهم ثم يحضوا تلاميذهم، على مثل ما فعلوا؟! يحسنون بذلك إليهن، وإلى صبيتهن، كما يحسنون إلى أبناء الأمة، وقد تصدوا لتربية أبناء الأمة! وكما يحسنون إلى أنفسهم قبل إحسانهم إلى كل أحد؟!!

هل يجدن من العلماء ووعاظ الأوقاف - وعليهم إسماع الناس صوت الدين الرهيب فى الحث على الرحمة - أنصاراً لهن، يعنون حق العناية بأمرهن، ويأخذون على أنفسهم العمل لهن بجد؟!!

هل يجدن فى طبقات الرؤساء على اختلافهم، أجواداً يمدونهم، ويأمرون مرءوسيههم بالمعروف فى حقهن؟!!

هل يجدن فى شبابنا نخوة - والمرجو فى شبابنا النخوة - فيعينونهم بجزء وافر فى أيديهم؟!!

هل يجدن موسرين، يغضون عن بعض يسارهم لهن، يقرضون الله قرضاً حسناً؟ و«من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة؟!». .

هل يجدن من أولى الحفلات الشائقة لموتاهم - والموتى أغنى خلق الله عن الحفلات - أنصاراً لهن، يخفضون من حفلاتهم، بعض ما نصبوا، ويقدمون ثمن المخفوض لهن؟ ذلك خير وأعظم أجراً! وإن رأوا أن يعلنوا فى

الصحف ما فعلوا، كانوا قدوة حسنة لغيرهم، ومن سن سنة حسنة فله  
أجرها!

عطفًا، يا سكان العاليات من القصور، على هؤلاء اللاتي أشرفن هن  
وصيتهن على القبور!

عطفًا، يأيها الذى يقطع ليله القصير، فى نوم السبات، غائصًا فى  
الفرش اللينة، قد ضربت من دونها الأستار والكلل، على هؤلاء اللاتي  
يقطعن ليلهن الطويل، منبذات بأولادهن فى العراء، ساهرات باكيات  
منتحبات!!

عطفًا، أيها الموسر، الذى حيزت له الدنيا بما فيها، ففتنته عن مستقبل  
لا آخر له! أحسن إلى الناس كما أحسن الله إليك! لا يصدنك إحسان الغنى  
إليك، بالجزيل، عن إحسانك إلى الفقير بالقليل! اتعظ بغيرك، ولا تعرض  
نفسك لأن يتعظ بك غيرك!

عطفًا أيها الأباء، الذين يعجبهم ما فيه أبنائهم وبناتهم من آثار الصحة  
والنعمة، على هؤلاء اللاتي يوجعهن ما فيه أبنائهن وبناتهن، من آثار السقم  
والابتلاء! جودوا باليسير من فضول نعمكم الكثيرة! ذلكم أقر لكم عينًا،  
بأولادكم فى مستقبل كأيام هذه المهاجرات، مظلم!

عطفًا، أيها الذى لا يكفيه لدفء الليالى فى برد مصر القليل، ما يواريه  
من ريش فاخر، وما فوقه من غطاء حرير، وما تحته من مهاد وطىء، وما  
وراء ذلك من غرفة كثيرة المصابيح، مقفلة النوافذ، مرسله السجوف، وما  
وراءها من بنيان مشيد، حتى أمر فتوقد مدفأة! عطفًا! عطفًا! على هؤلاء  
وبناتهن، اللواتى فى برد تركية القارس، ولا ثياب، ولا وطاء، ولا غطاء،

ولا غرفة، ولا بناء، ولا مدفأة! وجملة ما هن فيه: أرض جافية رطبة، وقر الشتاء، ولباس خليع من المحسنين، والله يتولى المحسنين!

أحسنوا، أيها الأغنياء، بقضول أموالكم، وأحسنوا، أيها الفقراء، ما استطعتم، واتقوا النار ولو بشق تمرة!

وأنفقوا فى سبيل الله، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين!

ع . ز

وقد دفعت إلى بعض الجهات جنيهين اثنين للمهاجرين، ولو جاز إمساك صلة لحقارتها، لأمسكت جنيهى. لكننى أرجو، أن يعصم الله بهما من الهلاك ولو نفساً واحدة؛ فأدركوا المهاجرين حتى يدركها واسعوا الثروة من حضراتكم، واسعوا فى أخواتكم وإخوانكم، لتسكين آلام الناس ما استطعتم. بارك الله فيكم.

ع . ز

## وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم!

فى سنة ١٨٣٣ أراد شاب أن يسافر من أحد الشغور إلى أمريكا. فذهب إلى الميناء، فوافق سفينة مهياة للسفر، ولكنها تنتظر ريثما تطيب الريح. فاكترى له موضعاً فيها، ونقد الكراء، ولبث فى الثغر ينتظر. وفى ذات يوم جاءه أن الريح صلحت، وأن ربان السفينة سيقلع اليوم فى متهى الساعة الخامسة. فلما دقت الساعة أربعاً، جعل طريقه إلى الميناء، قائلاً فى نفسه: (من ليس لك عليه حق الانتظار فانتظره. المسافر ينتظر القطار، والقطار لا ينتظر المسافر) وسار حتى بدت له السفينة، آخذة أهبة السفر، رافعة أعلامها، باسطة قلاعها، ناشرة حبالها، وصارت منه بحيث يسمع صياحه من فيها. فالتفت فرأى بجانب الطريق حديقة صغيرة، بين نباتها واحدة رباعية الورق، هى فى زعمه فأل حسن، وآية على سعادة الطريق؛ فعدل إليها فقطفها. فانقض عليه جندى، كان يذهب ويجىء، أمام مخفر بجانب الحديقة، بندقته على كتفه؛ وندبه إلى المخفر. فقال له: وما شأنى فيه؟ فقال: اقرأ، وأشار إلى لوح معلق فى مدخل الحديقة. فرفع الشاب بصره فإذا هذه الجملة: (يعاقب بغرامة قدرها كذا درهما كل من قطع من نبات الحديقة). فقال: مالى وللوح؟ أنا ذاهب إلى السفينة التى تسافر الآن إلى أمريكا. فقال الجندى: مالى وللسفينة؟ عليك أن تسير معى إلى المخفر، ومنه تذهب مع بعض الجند، إلى حكومة البلد، حيث تدفع الجزاء. قال المسافر: يا أخى! فى أقل من ساعة تسافر السفينة، التى استأجرت فيها موضعاً، ودفعت الأجرة،

فأسألك ألا تكون عقبه فى طريقى! قال الجندى: لا شأن لى فيما تقول .  
وأخذ بتلايبه . فقال له: مهلا وترو فى الأمر! إنه مما لا يصح فى عقل، أن  
القانون يريد أن يقطع على مسافر طريقاً بعيداً كطريقى، ويخسره أجراً كالذى  
نقدته، فى نبأة فذة، قطفها بدون أن يعرف من أمر قطفها شيئاً! فقال  
الجندى: حاول ما شئت، ثم لا تجد منى غير مطيع للأوامر! ولما جرب  
الشاب ضروب الملاينة والمخاشنة، والتهديد والمحاسنة، فلم يفلح، سار إلى  
المخفر، فحكومة البلد، ودفع الغرامة، وعاد يعدو إلى الميناء، والعرق يسيل  
منه، والنصب قد أخذ فيه كل مأخذ؛ ولكنه ألقى السفينة قد فرقت المرسى،  
وتوسطت اللجة! فأخذ يندب حظه، ويسب الجندى والمخفر، ويسخط على  
الحديقة وألوان النبات، من ثنائى وثلاثى ورباعى! وأقام فى ذلك البلد،  
يتحين سفر مركب آخر إلى أمريكا. وفى بعض الأيام، قصد مطعماً، فوقعت  
يده هناك على صحيفة فيها فصل من أمور الجو، وحوادث السفن، وإذا  
سفينته التى كان يحاول السفر فيها، قد ابتلعها البحر، ولم ينج من ركابها  
أحد. هنالك أدركه الحياء، لسخطه على القضاء، وعلم أن الله تعالى يرسل  
رحمته إلى عباده، فى صور يسخطهم عليها جهلهم. فعول على تلقى الأقدار  
بالشكر والسكينة، وإن جرت ريحه بما لا تهوى السفينة.

\*\*\*

## المريضة وولى العهد

كان بين زوار مدينة كرلسباد، ذات الحمامات الشهيرة سنة ١٨٦٥، زائر كريم، تحفه المهابة ويعلوه الوقار. وبينما هو يمشى فى أرجائها يتفرج، إذا بأحد أمسك ثيابه. فالتفت فرأى جارية صغيرة، شاحبة اللون، تسأله صدقة؛ فقال لها من ساقك إلى المسألة؟ فقالت: أمى المريضة. فقال: وأين أبوك؟ قالت: مات وخلصنا للجوع. ثم انتحبت. فقال لها: أوصلينى إلى حيث تقيم أمك! فسارت وهو يتبعها، حتى وقفت على منزل صغير حقير، يريد أن ينقض، وأومات إليه فدخل. وعرجا فى سلم لم يهدأ له أطيط، حتى انتهيا إلى غرفة فوق السطح، فأشارت إليه، فدخل. فإذا حجرة حشوها الظلمة والشقاء، وإذا امرأة فى زاوية منها، فراشها الحشيش والخرق البالية، قد نهكها المرض، وبان فيها الذل، وعلى كفيها رضيع، وبين يديها مائدة قد أكل عليها الدهر وشرب، وكرسیان مكسوران، وإناء من الفخار، هذا كل أثاثها. فلما أحست بالزائر، نهضت على توجع منها وشكوى. ثم قالت له: معذرة أيها الطبيب! حقاً لقد أساءت إليك ابنتى! دعتك لعيادتى على ما بى من الفاقة، فإنى لا أملك درهماً أدفعه إليك جزاء! فقال لها: أنا لست طبيباً. ثم أسلها: أليس لك من ناصر؟ فأجابته باكية، قالت: ليس لى أحد يهيمه شأنى؟ حتى أهل بيتى الذى أقطن فيه فقراء. وقد كنت زوجاً لأحد العملة، وكنا فى سعادة ورغد من العيش، حتى اختطفه الموت، ودفعتنى الفاقة، فصرت أعمل ليلاً ونهاراً، عسى أن أحصل على القوت لثلاثة، أنا على ما بى أقدرهم على العمل، حتى أقعدنى المرض، وصرنا فى ضنك، وأحسبنا من الهالكين.

فأخرج من كيسه جنيها، ودفعه إلى الجارية تشتري منه طعاماً، ولما رجعت به، تولى إصلاحه بنفسها، وتقريبه من المريضة؛ ثم أخرج صرة من النقود، ودفعها إليها، تستعين بها على حاجتها. وكان معه خادم، فصرفه إلى أمر، ناجاه فيه، وأقام ينتظر، حتى عاد ومعه طبيب، فخاطبه في شأن المريضة، ثم انصرف. فأخبرها الطبيب، أنه مأمور بعيادتها كل يوم مرتين، وإحضار حاجتها من الأدوية، بنفقة من قبل ذلك المحسن. وأخبرها أن ذلك الزائر الكريم، الذى تعرف إلى هذه الغرفة الحقيمة عند شدة أهلها، هو فريدرك ولى عهد مملكة روسيا. فلما سقط هذا الخبر فى أذن المريضة، ابتهلت إلى الله تعالى، تسأل له خير ما أعطى عبداً من عباده، والله يجزى المتصدقين.

\*\*\*